

شوقي عبد الأمير

يوم في بغداد

2007/10/19







يوم في بغداد/ سرد
شوقي عبد الأمير / مؤلف من العراق
الطبعة الأولى: ٢٠٠٨



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،
ص. ب: ٥٤٦٠-١١، العنوان البرقي: موكيّالي
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب: ٩١٥٧، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢
هاتفاكس: ٥٦٨٥٥٠١
E-mail :info@airpbooks.com

لوحة الغلاف:
شدّاد عبد القهّار
التنفيذ الطباعي:
مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت، لبنان

سرد

شوقي عبد الأمير

يوم في بغداد



إلى فتحية مجيد

إلى أمّي.

كانت أجواء الليلة المنصرمة مُفعمة بالصعّادات الناريّة "العراقيّة" فالعراقيون اليوم لا يكترثون بالألعاب النارية الخاصة بالزينة والمهرجانات وعلى أي حال صاروا يفضلون عليها الرصاصَ الحيّ والراجمات لتحل محل قاذفات الصعّادات الاحتفاليّة تلك التي كانت تملأ أجواء بيروت عندما غادرتها قبل أيام أثناء الاحتفال بالعيد، كما جرت العادة.

في الصباح لم أكن بحاجة إلى المنبّه في هاتفي النقال لأستيقظ للمرّة الأولى في بغداد بعد إنقطاع طويل، لأن إرتجاجاً قوياً حدث على مقربة من المكان. هرعتُ من فراشي أسأل عن مصدره فأجابني أحد الحرّاس بابتسامة: إنهم يتدربون وليست هناك مواجهة... نحن على مقربة من معسكر للتدريب...

كان صباح هذا اليوم الجمعة من تشرين أول بارداً أكثر مما كنت أتوقع وكانت الشمس تبدو أقرب إلى طَعْمها الشتائي وكأن بغداد قد طوتْ سجّادةَ خريفِها بسرعة، حتى أنني لم أكن أحسب لهذا الأمر حساباً وقد جئت بملابسي الصيفيّة إعتقاداً مني أن بيروت أبردُ من بغداد وقد تركتُها ساخنة نوعاً ما..

لا شيء يلفت النظر لأول وهلة هنا أكثر من هذه البرودة المفاجئة، أما الدخان الذي ينتشر في السماء هنا وهناك فهو مجرّد سحابات واطئة سوداء ثقيلة حتى وإن تشظّتْ فيها الصواعقُ وأرعدتْ وأبرقت... إلا أنها لا تمطر قط.. هذه السحابات تعوّدت عليها سماء بغداد، أَلِفها الناسُ وصاروا لا يعيرون لها إهتماماً، فهي إما إنفجارات أو قصف أو ألغام متشظّية أو ما يشبه ذلك من يوميّات المدينة العاديّة..

كل هذا المشهد ألاحظه وأتأمله أنا وحدي وكلُّ مَنْ حوالي منصرفٌ إلى بعض الشؤون اليومية لدرجة لم أعد أجرؤ على التساؤل وصرت أنا الآخر أُبدي ذات اللااكتراث وأدرّبُ ذائقتي على التآلف مع هذه "السمفونية الناريّة"، وعلى ذكر السمفونية، كنّا بالأمس نصغي إلى بعض مقطوعات الموسيقى الكلاسيكية التي جاء بها صديقي من إقامته في فينّا، كالسمفونية الرعوية وسواها. قلتُ في نفسي: ليكن هذا إذن هو مؤشر الانتقال من "العصر الرعوي" إلى "العصر الناري" على الأقل في العراق... سأكتفي بالإصغاء لوقع هذه الاطلاقات والهزّات ولن أسأل عن معناها وأهميتها كما يفعل الجميع فهُم يكتفون بالنظر بصمت في عيون بعضهم البعض ولا ينتظرون جواباً. وهكذا بدأتُ أتدرب على الحياة مثل العراقيين الذين ما دام الواحد منهم يجد نفسه على قيد الحياة فإن كل شيء على ما يرام مهما بدا المشهد أمامه الآن أو ما سيؤول إليه، المهم هو أن الحياة تتواصل.

هياكل المفخخات كُلُّها متواجدة في أماكن إنفجارها بعضها فاتَ عليه زمن وعلاهُ صدأٌ أحمر ليس دماً متخثراً والبعض الآخر ما زالت بصمات الدم اليابس فوق المقاعد.

على أي حال، بقرار من أمانة العاصمة أو بدون، فإن البغداديين اعتبروها تماثيلَ للموت ما زالتْ منتصبةً في شكل هستيري يحتل الساحة أو واجهة الشارع ولا أحد يلتفت إليه... وكلما اقتربتُ منها وكأنني بأيدٍ وأذرع تُلوّح لي عبر هذه الكتل السوداء المبعثرة فوق جسد المدينة وكأنّها فجواتٌ وحفرٌ أحدثتها النيازكُ والانفجارات فوق سطح الأرض منذ زمن بعيد. حتى الناس لم تعد تتحدث عنها فبعد ساعة من إنفجارها ولـمّ الأشلاء وتنظيف المكان، يعود الباعة المتجولون إلى المناداة بأعلى أصواتهم حاملين الفاكهة الطازجة أو قدور الباقلاّء واللفت والشوندر...

يرافقني في هذه "النزهة" صديقي الدكتور مهدي الحافظ النائب في المجلس الوطني العراقي الأول المنتخب في تاريخ العراق، حيث لم نجرأ على الخروج على الأقدام، طبعاً ولكن بسيّارته وبرفقةِ حرسه.

لا أحدَ منّا يجرُؤ على الحديث أو إقتراح "نزهة" ولكن شمس بغداد وإستراحة يوم الجمعة وقدومي من بيروت كُلّها تدعونا بصمت إلى القيام بمثل هذه الجولة، لكننا جميعاً نعرف كل الأخطار الكامنة وراء مشروع كهذا.

هكذا سرنا دون قرار مسبق إلى شارع الرشيد، قلب العاصمة، شريانها الذي يحمل رموزها والعديد من مراكز حيويتها التجارية تحيطه الأحياء القديمة والأسواق وما تبقى من بغداد العباسيّة.

وبعد التأكد من "أمانة" الطريق والتداول مع الحرس الذي أجاب بـ"إن شاء الله ما فيه شيء" إنطلقت السيّارة صوب النهر فنحن في كرخ بغداد ولا بد من العبور إلى الرصافة. الكرخُ والرصافة هما البُطين الأيمن والبطين الأيسر لهذه المدينة القلب. ولكن أين هو النهر؟ نحنُ على مبعدة أمتار منه ولم أكن أعلم... كنت أسأل صديقي أين دجلة؟ وهو يجيب مبتسماً إننا على الضفاف... أيّة ضفاف فأنا لا أرى غير هذه الواجهات الكونكريتية التي ترتفع بضعة أمتار وتلتف بشكل حلزوني لا يمكن من بينها أن ترى النهر إلاّ من مواقع تتباعد فيها أكتافها الحجريّة... وعندما تقترب أكثر من النهر... إنها المفاجأة.. ماذا ترى؟ ليس دجلة ولا هو نهرٌ إنه مجرى شاحب ينمو على جانبيه وفي داخله نبات الحلْفاء الطبيعي الذي ينتشر في المناطق الغير مأهولة بالسكان والذي عرفتُهُ في مناطق الأهوار الجنوبية وفي البرك ومستنقعات الماء الراكد. يجب أن تبحث عن النهر داخل النهر لتتعرف عليه وفي بعض المواقع يمكن أن تجتازه مشياً على الأقدام لتضطرَّ بعد ذلك إلى أن تكذّب نفسك بأن هذه الساقية التي تحت قدميك هي دجلة ذلك النهر الذي شطر التأريخ إلى

شطرين وأقام على ضفّتيه إمبراطوريّة ضمّت تحت دفّتيها مشرق الشمس ومغربها.

بعد مناورات والتفاتات وسير عكس الطريق وصعود السيارة فوق الرصيف عبرنا النهر على الجسر المعلّق، الجسر الذي كان رمزاً لبغداد الحديثة المتطورة وحديث أهالي بغداد في أواخر الستينات، فقد تعرّض قبل أشهر لتفجير كان يهدف الإطاحة به كما فعلوا بجسر الصّرافية وهو رمز آخر من رموز بغداد الحديثة. ومن المفارقات بشأن حادث التفجير لهذا الجسر ما رُوي من أن أحد الارهابيين الذي كان يترصد مرور أحد الشخصيّات السياسيّة الكبيرة قد سأل الحرس عندما رأى الجسر مقفلاً فأجابه الحرس؛ أن الرئيس سيمرّ عليه بعد نصف ساعة، وهكذا انفجر الجسر بعد نصف ساعة.. حَمى الله الرئيس الذي أخّر مُروره؟... تسير أمامنا على الجسر شاحنة مدنيّة متوسطة الحجم من النوع المخصص لنقل الأحمال والبضائع وأحياناً المواشي التي تؤخذ للذبح لكنها هذه المرّة محمّلة بالنساء المتشحات بالأسود اللواتي ارتمين على أرضية الشاحنة بطريقة عشوائية تماماً مثل أكوام البضائع.

حاولت النظر إليهن عن كثب، أن أقرأ تعبيراً في الوجوه المغطاة بالأسود فلم أجد إلا ذلك الفراغ الهائل الذي يغلّف محاجر العيون بشكل يثير أحياناً القشعريرة.

في الطريق أدركنا "الكرّادة" وهو حي شهير عُرفَ بالأمس القريب بجماله وعناقِ مبانيه للنهر وإلتفاف شوارعِه كالأذرع حول حدائقه بمجاراة النهر. ببيوتهِ ذاتِ الطراز المعماري القديم وشوارعِه الفسيحة ما زال بالرغم من كل الانفجارات يصخبُ بالمارّة والباعة وما زلتُ أرى شباباً يجلسون على "لا تراس" الأرصفة في الكرّادة... أجل لا تراس... كما يقولون في بيروت وباريس وأيّ تراس هذا؟ ماذا سيتأمل الجالس في هذا المكان الملغّم والمفخخ بدون انقطاع.. أنهم عليالعكس من كل ما نتوقع يضعون الكراسي والطاولات خارجاً قرب الرصيف ويرشّون المكان بالماء ويتنادونَ بصوتٍ عالٍ وبقهقهات وإشارات بالأذرع وعلائم المزاح والفرح لا تفارقهم.

المذهل في الأمر أنك عندما تأتي إلى هنا قادماً من الخارج... قادماً من شاشات القنوات التلفزيونية حيث لا ترى هذا المكان إلاّ مضرجاً بأبنائه ومتفحّماً في طلعته ومنظره، عندما تدخل الشارع وترى كيف يعيش الناسُ وكيف يمارسون حياتهم ودورة أعمالهم فيه تكاد تنسى، لا بل تنسى كل ما رأيت فتنزل إلى المقهى وتجلس حيث يجلس الجميع وكأن شيئاً لم يكن... هكذا بالضبط أي أن عدوى الحياة أقوى من عدوى الموت.

في الجهة الثانية من الشارع مبنى ضخم محترق الجدران سقطت واجهته الأماميّة فبدت الغرف والصالات والمرافق وكأنها بطون محفورة. في وسطه

ساحة مثل باحة شرقيّة تناثرت فيها هنا وهناك بقايا حطام متفحم أزيحت جانباً دون أن تنقل أو تسحب بعيداً... قبل فترة ليست بالبعيدة انفجرت أمام هذا المبنى سيّارةٌ مفخخة بوزنٍ كبير.. هدّمت المبنى وأزاحت الجدران وقتلت وجرحت الكثير لا داعي لذكر الأرقام...

الجديدُ في حادثة التفجير في هذا المكان هو الردّ الذي قدّمه سكان الشارع والحارة على هذا العمل الاجرامي ذلك أنهم رجالاً ونساءً إجتمعوا ليقرّروا استغلال المبنى المبقور الذي بدا وكأنه مسرح روماني بدون مقاعد للمشاهدين، فاتفقوا على عمل مسرحية يكتبها أحدهم ويمثلونها هم بأنفسهم بما في ذلك الفنيون والمخرج. وبالفعل كتبوا مسرحية موضوعها علاقةُ حب ولقاء بين رجل وامرأة وسط محيط من الدمار والموت والضياع. اللافتُ أيضاً هو موضوع المسرحية تلك الفكرة الرومانسيّة جداً، والتي قد لا تبدو قريبةً من الأذهان في مثل هذه الحالات المأساوية من قتل وجرح ودمار، حيث أول ما يتبادر إلى الذهن هو المأساة وفصولُها وانعكاساتها لكنهم إختاروا حالة عشق وعلاقة شفّافة من نوع "روميو وجولييت" وكأنهم بهذا يريدون الإصرار على تجاهل بل وعلى محو الكارثة التي يقيمون فيها بكل رموزها.. أرادوا الظهور عُشاقاً جميلين مفتونين بالحياة، بالجمال بالحب بالوفاء بكل هذه المعاني التي غابت وبدأت تختفي كليّاً من ظاهر الحياة في بغداد..

إنهم بذلك يصدحونَ بأغنية رومانطيقيّة لكي تُديرَ مدينتَهم ظهرها لِشبح الموت. أقاموا كل شيء لوحدهم ولا أعرف إذا كان الأمر مدروساً أو مبرمجاً.. لا أظن ذلك لأن نشاطهم كان عفوياً وسريعاً ومفاجئاً للجميع.

بغداد ترد بالحب والعشق والوفاء على كل مفردات الدمار والموت والرعب. بغداد تواصل أمام مرآة الحقيقة ترميمَ وجهها الذي مزّقته وحوشٌ كاسرة وإراداتٌ عدميّة جاحدة للفن والحياة والإنسان.

تدرّبوا على هذه المسرحيّة في الشارع، في نفس المكان، أعدّوها وأخرجوها بقدر ما تسمح به الحال فقد تحمّلوا تكاليفها ونذروا كل ما يملكون لانتاج هذا العمل أقاموا كتل الديكور الذي كان بالألوان والأشكال والمناظر والمؤثرات الطبيعيّة، لم يحتاجوا إلى فانوس سحري أو ألوان أو حِيَل فنيّة كما هو معروف.. اللون الأسود المتفحم والركام والأشلاء هي هي وكل ما تركته القنبلة وراءها ظلَّ في أرضية "المسرح" وضعوا الكراسي البلاستيكية على طريقة المقاعد في المسرح الروماني بأعداد تتجاوز المئة وقدّموا مسرحيّتهم ليلاً بالرغم من أن الناس لا تخرج عادة ولا تسهر ولكن حتى إختيار الوقت كان يحمل نفس معاني التحدي. حضر جمهور كبير. طالت السهرة المسرحيّة إلى وقتٍ لم تعتد بغداد أن تسهر فيه خاصة في مثل هذا الحي المعرّض باستمرار لكل

أشكال المفخخات. وكنت أقصد أن أرى المكان، أن أرى هذا المسرح "العراقي" بكل معنى الكلمة.. أن أرى كيف أحال هؤلاء الفتيات والفتيان حطام سكناهم إلى منبر للحياة والمواجهة والدفاع عن حلمهم الذي لن تطاله المفخخات ولن ينال منه الارهاب والعنف، حلم الحياة والابداع والجمال... حلم بغداد اليوم.

عبرنا الكرّادة متّجهين إلى منطقة الباب الشرقي وبالطبع لا بد من المرور بـ "ساحة القهرمانة" النصب الذي عمله الفنان العراقي محمد غني حكمت والذي يصور حكاية من ألف ليلة وليلة عندما صبّت القهرمانة الزيت على "البساتيج" كما تسمى بالعراقي وهي الزيرات (جمع زير) التي إختبأ فيها "الأربعون حرامي" لتخرجهم منها كالنحل من خلايا الشمع وأنا أقول في نفسي كم طنّاً من الزيت المحترق وكم قهرمانة نحتاج اليوم لنخرج كلّ "حرامية" بغداد من ثغورهم و"بساتيجهم" التي يختبئون فيها؟!

على أي حال النصبُ في غاية الجمال والهارمونيا بين جسد القهرمانة والزيرات والحكاية وألف ليلة وليلة... وألف مفخخة ومفخخة.. وكل شيء ما زال يجري؛.. الدم والتأريخ والزيت والحراميّة، الغائبة الوحيدة هي القهرمانة التي أعاد محمد غني حكمت شبحها إلى شوارع بغداد لتبقى من بين كل الأشباح الراحلة وحدها تَتَمثلُ في جسدٍ رخامي وفي حديث منذ أكثر من ألف عام لم يصمت بعد ولم تتوقف شهرازدُهُ عن الكلام المباح...

أُبيحَ الكلام اليوم في بغداد ومعه أُبيح الموتُ والظلامُ والدمُ والنهبُ والغياب والتشردُ والنعيُ. أُبيحَ الكلامُ في بغداد ولَن تسكت بغداد عن كلامها المباحِ المستباح من بعد.

يا لها من مفارقة؛ في حكاية ألف ليلة وليلة كانت شهرزاد تُدافع عن حياتها وتدفع ساعة موتها بالكلام المباح، كان الكلام هو هواؤها الذي تتنفسه وجسدُها الذي يلوذ ويحتمي بنفسه من سيف شهريار وبغداد اليوم تموت ألف مرّة كل يوم من أجل أن تدافع عن كلامها عن صوتها وحريّتها. إنها تموت ليبقى صوتُها، تقدم آلاف القرابين لتكسر أسوار الصمت التي كبّلتها عقوداً طويلة دامية. بغداد تموت كل لحظة لتقول كل لحظة أنا أحيا... لقد قَلَبَتْ معادلة شهرزاد التي كانت لا تكف عن القول والكلام كل لحظة لتبقى ولتدفع الموت عنها.

تُرى أية معادلة هذه بين الكلمة والموت، بين الجسد والماوراء بين الدم والكلمات؟

إذا كانت "ألف ليلة وليلة" قبل ألف عام وعام رمزاً لانتصار الكلمة فإن بغداد اليوم بألف قتيل وقتيل تعيد صياغة مفردات هذا الرمز تُعيدُ تأسيس كيانها بين الموت والكلام بين الصوت والجسد تلك هي خارطتُها الأعمق وتلك هي مسيرتُها غايتها.

ولهذا يمكننا القول أن العلاقةَ بين الكلام وبين الحياة كمعادلة وجودٍ

وموتٍ، موتٍ ووجود، إبتكارٌ بغداديٌّ بمعنىً ما. هي براءة إختراعها حَمَلها نصٌّ عجيبٌ ساحر إلى العالم "ألف ليلة وليلة" ماتت هي مرّات عدّة، ماتت بغداد العبّاسية بكل شيء فيها وبقي النص. مات شهريار والامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس وظلّت شهرزاد وظلّت الكلمة الحكاية. مات سيفٌ وجاءت سيوفٌ وسالت دماءٌ ولم تزل شهرزاد.. لم تزل الحكاية التي خرجنا من رحمها لا تَرثُ إلاّ أصقاعَ الحلم والرؤى. وعلى أي حال لم ترث بغداد من بغداد المنصور إلاّ الكلام، أقصد، بكل بساطة، الحياة بمعنى ألف ليلة وليلة.. لم ترث بغداد قصوراً وأعمدة من الرخام ولا نصباً أو تماثيل بل ورثت شهرزاد والمتنبئ وأبا نؤاس والجاحظ وأبا حيان، هؤلاء هم أعمدةُ معابدها وجُدرانُ مساجدها وأسوارها. لقد عبرت القرون على صفحات كتبهم وفي حناجر قصائدهم. أُحرقتْ مراراً وأُغرقتْ أخرى ودُمّرتْ وابتُليتْ بالطاعون والكوارث وظلّت تحمل سرَّها "اللوغوس" الخالق والحامي لكيانها؛ وهو الكلام منثوراً وقصيداً. أيّة علاقة بين الجسد – الكينونة – الخلود من ناحية وبين الصوت – الزمن – الميتافيزيقيا من ناحية أخرى؟ وهل هي أَنسغٌ متعاقبة تتوالى في صعود وهبوط بين الانسان والهيولى، بين الماضي والحاضر، بين السماء والأرض في غابة معمّرة اسمها بغداد؟

• • •

مباشرةً وبعد بضعة مئات من الأمتار أدركنا ساحة الفردوس، الفردوس الحقيقي سابقاً الذي كان ينعم به تمثال الديكتاتور الذي شهد العالم أجمع كيف أُنزل عن العرش الكونكريتي بحبل حديدي مربوط بدبابة أمريكية كانت تسحله على الأرض... وكأن "السحل" كما يسمّى في العراق يظلُّ رديفاً للثورات والانتفاضات فقد دشّن العراقيون ذلك في ثورة تموز عام 1958 عندما سحلوا رؤوس النظام الملكي وما زالت بغداد تتذكر تلك المشاهد بمزيج من الاشمئزاز والاعتزاز.

أجل أنزل نصب الديكتاتور ليحل محله وبسرعةٍ أيام نصبٌ أقامه فنان عراقي شاب إسمُهُ باسم حَمد يمثل تقاطُعاً للخصب والعطاء التمّوزي حيث شَدّةُ السنابل والأذرع والعديد من رموز الحياة والخلود كلها تجتمع في مُجسم من الجص إرتفع على أيدي الفنانين أنفسهم ولم تقرر ذلك لا حكومة ولا جيش إحتلال ولا أمانة عاصمة حيث في تلك الساعات لم يكن أحد من هذه المؤسسات يتفرغ لاقامة نصب. إرتفع هذا النصب وما زال، لكنه بدأ يتآكل لأنه معمول من الجص والجفصين ولم يتم صهرُهُ ونصبُه بالطريقة التقليدية من النحاس أو نحتُه على الحجر... والغريب في الأمر ما بلغني بأيام قبل زيارتي هذه أن هذا الفنان باسم حَمد قد رحل في حادث سيّارة في الطريق بين بغداد ومدينة "الصويرة" التي ينتمي إليها وهو عائد إلى زيارة أهله.. فنان شاب وموهبة نادرة غادرنا بعمر لم يتجاوز الثلاثين ربيعاً.

لقد أقام نصبَهُ بسرعة خارقة. كان يعرفُ أنه على عَجلةٍ من أمره ولا بد أن يُنهي وضعَ بصماته هذه في أعلى نُقطةٍ من ذاكرةِ الألم العراقي... أجل كان يعرف في مكان ما أنه على شفير الهاوية وأن عليه أن يحتلَّ هذا المكان الذي كان يَسوقُ العراق بسياط النار والموت ليرفع مكانه سنابلَه ووجهَ عشتاره وباقة جنيّاته.

إلى يسار "الفردوس المفقود" هذا يرتفع الفندقان التوأمان الكبيران؛ فندق فلسطين وفندق عشتار.. ما زلت أذكر تلك الليلة من كانون أول عام 2003، في أول زيارة لي لـ بغداد بعد 34 عاماً من النفي والحلم بالعودة. كنت أرقد في غرفة في الطابق الثاني عشر، عندما إهتزّ الفندق وكأن زلزالاً أصاب المكان فهرعنا من الأسرّة لنعرفَ ماذا حصل لندرك أن صاروخاً من البازوكا أُطلق على الفندق وأصابَ الطابق التاسع منه.. أتذكر أن قشعريرةً إهتزّ لها بدني عندما سمعت رقم الطابق المصاب حيث أذكر أنه كان من المقرر أن أحتلّ غرفة في الطابق التاسع ولكنني ولأمرٍ غريب لم أطمئن للغرفة... بدتْ لي مُعتمةً وكان الأثاثُ مهترئاً وعندما قلتُ لموظف الفندق أنني لا أريد هذه الغرفة لأنها سيئة أجابني: على العكس مما تتصور فإنها من الغرف الجيدة ولا أعتقد أنك ستحصل على أفضل منها.. ولكنني وبإصرار طلبت تغييرها وبالفعل إنتقلت إلى الطابق الثاني عشر. كان الموظف على حق لم تكن الغرفة أفضل بل ربما أسوأ

ولكنني قبلتُ بها.. تُرى ماذا يحدثُ أحياناً؟

ذكرى هذه الإقامة الأولى ما زالت تنبضُ في كل كياني خاصة وأنني مثل كل الملايين من المشاهدين في العالم، قد حفظتُ صورَ هذا الفندق ومداخلَه وواجهاتِه وأثاثَ غُرفه من خلال الريبورتاجات التلفزيونية التي كانت تصدر منه طوال ساعات اليوم وفي كل مكان، لتنقُلَ مشاهدَ المواجهة والحرب في بغداد. كان المعتقل الاختياري للصحفيين والقلعة الاعلامية الأولى التي منها يطل العالم على هذا الوطن الذي يظهر فوق أطلس الكون مثل بركان قديم دخل مرحلة الانفجار وصار يهدد الكرة الأرضية حمماً واهتزازات.

مرّت السيارة بسرعة ولم أجرؤ على طلب التوقف ولكنني كنت مثل بوذي في صومعته ونحن نعبر الساحة إلى شارع السعدون الذي كنت أعرفهُ وإذا بها المفاجأة الثانية... شارع السعدون الشريان المنفتح المليء بالأضواء والموسيقى وصالات السينما والبارات والمقاهي وعلى يمينه حيّ البتّاوين الذي يسكنه المسيحيون وعلى يساره النهر وشارع أبو نؤاس، هذا الركن الاسطوري من بغداد الذي كنا نمشيه ليلَ نهار في سنوات الستين والذي شكلت مقاهيه "قهوة مجيد" حاضنة للثورة الستينية في الشعر والفن التشكيلي والمسرح في العراق..

هذا الشارع لم أتعرف عليه... لولا وجود النهر إلى جانبه ولولا

إدراكي أنه جغرافياً يحتل هذا المكان الذي نحن فيه لَمَا صدّقتُ أنه شارع السعدون... أي أنني لو وصلت إلى هنا بدون أن يُذكر لي الطريق وبدون أن أتعرف على خارطة جولتنا البغدادية هذه، لو وُجدتُ هكذا فجأة داخل الشارع لم أكن لأتعرف عليه قط؟!

أجل شارع السعدون إنه اليومَ ركامُ شارع وحطامُ مبانٍ. دمارٌ بكل أشكاله؛ في النوافذ والواجهات، في المحلات والدكاكين، في المقاهي والشرفات، في الوجوه وفي العجلات، في الأصوات وفي النظرات ركام، يتهاوى وكأنّه قارعةٌ لقرون من الاندثار... إندثار أخطر ما فيه أنه لم يغطِّ ملامحَ المكان فقط بل غمر حدقات الروح وأنفاسَ المارّة وكل أشكال الحياة.

إلاّ أن تجارة جديدة رائجة غزت هذا الشارع وبدت وكأنها الملمح الأكثر وضوحاً وبداهةً فيه، فكما يقال عن باريس أنك تجد فيها بين مقهى ومقهى مقهى ثالثاً، فإن في شارع السعدون اليوم تجد بين كل مخزن بيع كراسي المقعدين ومخزن آخر مخزناً ثالثاً... لقد انتشرت هذه المخازن في شارع السعدون بشكل يبعث على الرعب فقد ملأتْ الأرصفةَ المئاتُ منها بكل أنواعها وصارت البضاعةَ الأكثر انتشاراً وصار منظرها في الشارع يبدو طبيعياً جداً لا علاقة له بكارثة أو بزلزال طارئ حَطّمَ البشر والحجر.. لا.. إنك تراها كما لو كانت هنا منذ أن كانت بغداد والناس لا

تألُ بالاً لوجودها. مئات الكراسي على عجلات للمقعدين.. إننا نفهم فوراً لماذا ولكن كيف تحول هذا الوجود إليحالة طبيعية.. لا تقابلها في هذا الانتشار إلاّ المولّدات الكهربائية الصغيرة التي صار وجودها هي الأخرى في بغداد من أهم ضرورات البقاء على قيد الحياة.. هذه بضائع بغداد الرائجة اليوم، وهذه تجارتها المربحة فالمولّدات لأنه لا توجد كهرباء مثل الكراسي للمقعدين لأنه لا توجد أطراف كافية يسير عليها العراقيّون.. إن ريحاً عدميّةً جرفت وتجرف مدينتهم وحياتَهم ولكنهم مصرّون على السير بأطراف وبلا أطراف بكهرباء أو بظلمات، بغداد تسير وتضيء..

نعم إننا نتحدث عن آلاف.. مئات الآلاف من الموتى ولكن كم من الآلاف من الجرحى والمبتوري الأطراف.. هذا الشعب الذي صار كسيحاً بين يوم وليلة لا بد له من عجلات وعجلات ودافعي عجلات وماطورات ووقود وآمال وأحلام وإيمان وجنون وميثولوجيا وطوبائيّة ونسيان ونسيان آخر لكي يُدوّرَ عجلةَ الأيام ويتقدم.. لا يدري إلى أين لكن لا بد أن تدور العجلة.. عجلة كرسيّ المُقعد هذه التي يجلس فوقها شعب صغير، شعب هالك يدفعه شعب آخر يقف بإصرار وراء العجلة.. هو الآخر مكبّل بأمراض وعاهات لا تظهر على جسده فلا تُبتَرُ أطرافه ولكنه يواصل عنادَهُ يحمل أمراضَهُ ويدفع بعجلة المقعدين إلى أمام

لأنه لا يعرف طريقاً آخر إلاّ المضي إلى أمام.

تلك مسيرة عراقيّة تنتشر اليوم في شوارع بغداد.. تظاهرة خفيّة لا اسم لها ولا تطالب بشيء وليس لها أحزاب ولا لافتات بل.. كائنات بشريّة تعد بالآلاف تقف مثل طوابير أمام بوابات المجهول والألم والخوف والانتظار.

• • •

أنظر إلى الناس وأعيد النظر إلى الحوانيت وأكاد أمسك بالرصيف أتقرّى، أتلمسُ أتذكر أهتزّ أقشعرُّ أتهاوى في داخلي ولا أصدّق أين أنا؟ وماذا أرى؟

ما هذا الجدارُ الفاصلُ كما كان يُقال بين الشرق والغرب، وكما يُقال اليوم بين فلسطين واسرائيل، جدارٌ قائم هو الآخر ولكن بين يمين وشمال شارع السعدون؟ ترى لماذا؟ هل الضفّةُ اليمنى سنيّة أم هي شيعيّة؟ هل الضفة اليسرى مسيحيّة أم هي مسلمة؟ لم يسعفني أحدٌ في الجواب... لماذا هذا الجدار العازل الذي يرتفع أكثر من خمسة أمتار من الكونكريت ويتسع لنصف متر عرضاً يمتد قرابة نصف كيلومتر، يشق الشارع إلى ضفّتين من حطامين ومن شقّين لجسد واحد، لضحية واحدة، وجهان مقتولان ووجهان قاتلان... ماذا حصل؟ وما المعنى؟

لم يجبني أحد؟ ولم أجد جواباً في نفسي، لأن شارع السعدون لا يمثل لا طائفةً ولا ديناً ولا عِرقاً. كان شاشةَ المستقبل التي منها يطل العراقيون على العالم الحديث ومنها كنا نعبرُ إلى أحياءَ حديثةٍ متطورة كالمسبح والعرصات ومنها ننعطف على النهر الخالد يستقبلنا أبو نؤاس بكاسه الأبدية، **"رقّ الزجاجُ ورقّت الخمرُ، فتشابها وتشاكَلَ الأمرُ / فكأنها خمر ولا قدح وكأنها قدحٌ ولا خَمْرٌ"** أبو نؤاس ما زال يصدح بابتسامته وكأسه، لا ينظر لا إلى جدار ولا إلى جثة ولا إلى مُحتل... ما زال ينتصب مثل شلال يتساقط دون إنقطاع من سفوح الأمس البعيد.

لكن المشهد الذي يستجوبك على الفور هو ما قام به الفنانون العراقيون هذه المرّة بشكل عفوي وإرادة تلقائية فقد حوّلوا كل المساحات الاسمنتية الصماء إلى جداريات بعضُها بألوان ريفيّة وأخرى أقرب إلى الرمادي والأزرق. ملأوا مساحات الاسمنت بقوارب للصيد مع شباك ترمى في النهر أو بحقول البردي في أهوارِ الجنوب أو بشرفات البيوت المطلة على النهر.. رسوم بألوان حادة يكاد اللون يصرخ، يصدم العين يقول: هل تراني! إن ما قام به الفنانون هنا يشبه إلى حد بعيد ما قام به أهالي "الكرادة" في مسرحيتهم.. إن بغداد بفنّها كل بطريقته تطلق صيحات إحتجاجها.. ها هي ريشة الفنان في محاولة لاختراق حدود الاسمنت والصمت والموت. في الجهة الأخرى من الجدار راحوا

يصوّرون مشاهد من الماضي العتيد، فأعادوا الثور المجنح حامي الامبراطورية الأشورية وأقاموا من جديد صوراً لمسلة الملك حمورابي "واستردّوا" نَصبَ أسد بابل... وكلها رموز تفضح حسرةَ وأسرارَ مبدعيها وتكادُ تصرخ بدلائلها ومضامينها؛ إنهم يستنجدون بحمورابي ليأتي يقيم العدل؛ "السن بالسن والعين بالعين" أو هم يحتمون بأسد بابل الذي يدوس تحت قدميه الأعداء بل وأكثر من هذا فإن صورة الثور المجنح الأشوري تشكل بدورها رمزاً للهيبة والسيادة الامبراطورية لعراق كان بالأمس البعيد...

ها هم الفنانون العراقيّون يعطوننا درساً في المواجهة اليومية خارج المضامين الثورية المفتعلة وخارج كل أنواع الواقعيات وخارج حلبة الصراع بين الفرد والدولة، بين الفن والسلطة... إنهم يختارون أيّ مساحة في فضاءٍ فوق ركام مدينتهم لينشروا عليها صرخات ملونةً واستغاثاتٍ خارقةً وحيواتٍ منبعثةً من جديد... أجل إنه الفن العراقي، النهرُ الخالدُ الذي يجري في العروق لا على الأرض هذا النهر لن يجف... لن يجف، وهو رافد عراقيّ بامتياز.

في آخر الشارع ينتصب تمثال عبد المحسن السعدون، رئيس وزراء العراق الذي إنتحر عام 1928، وكان السعدون من السياسيين المحترفين الذين اعتمدهم الملك فيصل الأول واختاره رئيساً للوزراء ومجلس

النواب عدّة مرات.. وكان قبل إنتحاره قد طُعن بالسكين أثناء صعوده إلى مجلس الوزراء من قبل موظف متقاعد بتحريض من بعض السياسيين إلاّ أنه عفا عن المجرم الذي حاول إغتيالَه.. كانت المشكلة الكبرى التي واجهت السعدون يوم ذاك هي المعاهدة العراقية – البريطانية التي أراد السعدون تعديلها بما يفيد العراقيين ولكن الانكليز أصرّوا على الرفض. يضاف إلى ذلك، كما تروي بعض كتب المذكرات، أنه جابه سُخريةً وتهكماً وانتقاداتٍ لاذعةً في مجلس النواب فما كان من عبد المحسن السعدون إلا الانتحار برصاصة في الرأس في مكتبه برئاسة الوزارة تاركاً وصيَّتَهُ باللغة التركيّة إلى إبنه علي والتي يقول فيها:

"الأمّة تطلب الخدمة والانكليز لا يوافقون"

مضت اليوم قرابة ثمانين عاماً على رحيل هذا الزعيم العراقي. كأن عجلة التأريخ تعود إلى الوراء، وما أشبه اليوم بالبارحة. بغداد في تلك الأيام كانت أكثر أمناً والحوار السياسي كان يوصف بأنه صاخب وحاد.. كيف يمكن مقارنته بما يجري اليوم حيث كم من سياسي اغتيل وآخر هُجّر وثالث لا يجرؤ على الخروج إلاّ مدججاً يَحتلُّ الحيَّ أو الشوارع المجاورة.

هذا التمثالُ الرمز سُرق في بداية الأحداث واختفى فترة من الزمن ولكن في صباح يوم ما أعادوه بعد أن سرقوا الحديد والنحاس الذي فيه

ووضعوا مكانَهُ نموذجاً من البلاستيك.. هذا التمثال الذي أراه الآن ليس هو تمثال عبدالمحسين السعدون الأصلي.. إنه صيغة بلاستيكية مضغوطة طبق الأصل... أيُّ لصوص هؤلاء؟ وأيّة عصابات "تحترمُ الرمزَ" البطولي ولكنها بحاجة للمال فقط؟! فهي لم تُرد الإساءة إلى بطلِ "الوطنيّة" ولكنها إحتاجت إلى الحديد في تمثاله ولهذا قررت إعادته وصبَّه كما كان وفي نفس الحجم.. إنهم مجرّد فقراء بحاجة إلى الحديد وليسوا ضد الرمز والتاريخ.. هكذا سيقولون وهكذا سيفسّرُ هذه العملية بعض السياسيين ورجال الأحزاب المتحذلقين ربما.. إننا نعيش مرحلة هستيريا لا علاقة لها لا بالنضال ولا بالتمرد ولا بالثورة.. هي جنون وفوضى لا تخضع لا لمنطق ولا لسوريالية فنيّة أو شعريّة.. هلوسة من طراز دموي..

على أي حال ليست هذه المرة الأولى التي يغيب فيها عبدالمحسن السعدون بـ"سدارته الفيصليّة" وهو متأبط في يده اليمنى رُزمةَ أوراق.. أقدم تماثيل بغداد الذي نصب في هذا المكان عام 1933 بعد أن أنجزه النحات الإيطالي بياترو كانونيكا. بجسمه النحيل وقامته القصيرة وسترته الطويلة - نصف معطف - إختفى المرّة الأولى في بداية السبعينات والثانية في منتصفها وكان ذلك حماية له بسبب مشاريع بناء جسر الجمهورية ونفق التحرير كما يقال..

أتركُ عبدالمحسن السعدون صامتاً واقفاً وحيداً حاملاً من جديد

مسدسه مصوّباً من جديد طلقة ثانية إلى رأسه ولا أحد يراه.

• • •

ينتهي شارع السعدون بساحة التحرير حيث الجدارية الرائعة التي رفعها جواد سليم في الساحة الرمز، "التحرير" التي تستقبل الجسر الذي يعقد زنّار المدنيّة من خصرها... ساحة التحرير هي الأخرى تقطعت أوصالها بجدران الاسمنت، شَوَّهت ملامِحَها العمارات المهدّمة وإخترقها نفق مليء بالقاذورات والجدران المتسخة، وكأنها لا تفقد فقط شكلها المعماري وهندستها كلولب مركزي لطرقات العاصمة بل وحتى رمزها فهي اليوم تتربع على صدرها الدباباتُ والجنود الأمريكيون الذين إستُبدلوا مؤخراً بجنود عراقيين، كمؤشر متواضع "لتعافي" السيادة الوطنيّة.

نخلاتٌ بعدد أصابع اليد الواحدة ترتفع وسط الساحة.. لم تكن موجودة قط من قبل.. لقد جيء بهذه النخلات لتغيير مشهد الساحة يوم كانت ساحة إعدام لـ"الجواسيس" الذين علّقهم صدام حسين هنا قبل حوالي أربع عقود من السنين.. جاءوا يومَها ليأخذونا من الجامعة للتظاهر بهذه المناسبة وأذكر أنني كنت من بين الطلبة الذين ساروا إلى ساحة التحرير لرؤية "المشهد".. الأجساد التي تتدلى والرقاب الطويلة

والناس تحت أقدام المشنوقين بالآلاف.. لم أحتمل هذا المشهد.. لا أعرف كيف نجوتُ بنفسي خارج هذا "الطقس" الثوري البعثي كما كان يحلو للنظام تصنيفَهُ في كونه إكتشف "وكراً للجواسيس" وعلّقهم في الساحة ودعا الحشود لـ"تحتفل"

لم أستطع وأنا أعود إلى ساحة التحرير اليوم إلاّ تذكّر هذا المشهد وعلاقة تلك المشانق والأجساد المتدلية منها بوجود هذه النخلات البواسق هنا..

أذكر أيضاً أن أعداء النظام كانوا يحلمون أن يعلّقوا صدام حسين وجلاوزة نظامه هنا.. لما لهذه الساحة من رمز وسطوة في ذاكرة العراقيين.

كنت أستعيدُ دائماً هذه الصور وأنا في فرنسا.. أعرف أن الشعب الفرنسي قطع رؤوس المئات في مقاصل وسط الساحات العامة بدءً بالملك وزوجته ماري أنطوانيت التي قطعوا رأسها في ساحة الكونكورد ومن ذلك اليوم سمّيت بـ"الكونكورد" أي التوافق.. كرمز لتوافق الفرنسيين على هذا القرار.. كان ذلك قبل مائتي عام.. الشعوب هي الشعوب ربما بفوارق في الأعمار والنضج والتجارب..

ساحة التحرير محتلّة من كل طرف.. "الدبابات الأميركية – العراقية" تربض في مواقع استراتيجيّة، فوّهات مدافعها مُصوّبةً نحو كل اتجاه أينما نظرت وقعت عيناك على محاجرها الناريّة.. حركة السيّارات

فيها ليست طبيعيّة، تقطعها بالاتجاه والاتجاه المعاكس معاً حسب ضرورات عسكرية لا علاقة لها بالمرور.. لم أكن شاهدت مثل حركة المرور هذه ولا في أكثر المدن تخلّفاً في العالم.. الشوارع ليست شوارع والاتجاهات ليست إتجاهات سير إنما فلوات ومفاوز حتى الجمال تتحرك في الصحراء بنظام واتجاه محدد لها أما بغداد فلا رصيف ولا طريق ولا موقف ولا حتى أدنى إحترام للعابرين السائرين الذين يمكن لأي سبب مهما كان تافهاً دهسهم أو العبور فوق أجسامهم...

كل هذا والناس في حركة سريعة ولا أحد يتوقف. تختفي في هذه الساحة الحركة عصراً قبل غروب الشمس وكانت بي رغبة شديدة تدفعني للتوقف.. لم أستطع ولا يمكن ذلك.

ساحة التحرير، جواد سليم يموت بساعة إنجاز النصب وإقامته فيها، وكأنَّ هذا الموت المفاجئ للفنانين العراقيين هو شكل تراجيدي ديونيسيسي لتوقيع الأعمال الخالدة في بغداد.

بين ساحة التحرير وساحة الفردوس أقل من كيلومتر وفنانان عراقيّان ماتا بعد اكتمال نصبيهما الأول جواد سليم عام 1961 بعد ثورة تموز والثاني باسم حمد بعد سقوط صدام عام 2003. توقيعان بالدم، نصبان نهائيّان كما يقال بالفرنسية "monument fatal" أي نصبان قدران نهائيان لُمبدعَيْهما.

خلف الساحة تنتصب جدارية فائق حسن المطلّة على "ساحة الطيران"، علاها الغبار وتساقطت بعض قطع الموزائيك. والألوان تبدو شاحبة تميل إلى العتمة، حتى الحمائم البيض لم تعد بيضاء.. الساحة هي الأخرى مستودع حطام وركام وبقايا سيّارات مفخخة ظلّت وحدها بعد أن تناثر مع زجاجها زجاج الأرواح والحدقات والوجوه القروية المعروفة التي إعتادت العمل والتسكع هنا في ساحة الطيران... فيها أيضاً منذ ساعات الفجر الأولى يصطف عمال البناء من الفتية والشباب في مقتبل العمر قادمين من ضواحي بغداد ومن حاراتها الفقيرة ينتظرون على الرصيف مجيء المقاولين وممثلي شركات البناء والأفراد لأخذهم إلى مواقع العمل بسيّارات مكشوفة تسمّى الـ بيك آب" أو الشاحنة الصغيرة... هؤلاء العمال اليوميين الذين يتقاضون أجراً يوميّاً عندما لا يجدون فرصة للعمل في يوم ما، لا يستطيعون أن يسدُّوا رمقَهم وحاجات عوائلهم... وقد إعتادوا، أيام الخير في بغداد، لكي يتمكنوا من مقاومة عمل البناء المضني والمتواصل كل النهار أن يتناولوا فطورهم في الفجر في حارة قريبة من الساحة، هذه الوجبة هي التي عرفت بـ "الباچة" وهي وجبة الفقراء التي تتكون من عظام ورأس وأمعاء الغنم والبقر أي كل ما كان يرميه بائعو اللحم البغداديّون من بقايا الذبائح لأن العوائل العراقية لا تتغذى عليه. من كل بقايا العظام ورؤوس وأحشاء الحيوانات تتشكلُ هذه الوجبة حيث تُطهى ساعاتٍ طويلة على النار مع البصل وأنواع كثيرة

من البهارات وبعد ذلك يُقطَّعُ ويُنقَّعُ فيها الخبز العراقي الذي يكون على شكل رغيف وهذا ما يسمّى عندنا بـ "الثريد" وهكذا تصبح هذه الوجبة غذاءً حقيقياً لهؤلاء العمال طيلة النهار حتى يؤوبوا إلى بيوتهم مع غروب الشمس... أتذكر هذه "الباچة" التي أكلتها للمرّة الأولى بعد ليلة ساهرة مخمورة في نادي إتحاد الأدباء وكنّا قد قضينا الليل في الشراب والنقاش والمعارك الثقافية والسياسيّة وكلها على مائدة نادي الاتحاد التي لا تحتوي إلاّ النادر من "المزّات" وعندما أخذ منّا السكرُ والجوعُ مأخذَه ذهبنا إلى تلك الحارة لتناول "الباچة" هناك التقيت للمرة الأولى بهؤلاء العمال الذين كانوا يبدأون نهارَهم في نفس المكان الذي يُنهي بعضُ الأدباء فيه ليلَهم... وكنتُ أسخرُ مع زملائي في تلك الأيام بهذه المفارقة وكيف أننا في التنظير والعربدة نلتقي مع هؤلاء الذين بأيديهم وبعرقهم يكابدون ويصارعون من أجل البقاء والعيش... هم ذاهبون إلى العمل ونحن عائدون إلى النوم أيُّ لقاءٍ هذا؟ ونحن ندّعي أننا ندافع عنهم ونناضل من أجل قضيّتهم.. أمام نفس الوجبة نلتقي اليوم في نفس الساعة من الفجر، هم ماضون لمواجهة نهارهم بعرق جبينهم وكلّ أذرعهم ونحن عائدون من ليل ثرثار مخمور "ثقافوي" إلى بيوتنا...

كانت ليلة في غاية الغرابة ما زلت أتذكرها تماماً حتى بعد مرور قرابة أربعةِ عقود من السنين... أذكر ساحة الطيران في الفجر وهؤلاء الفتية

الذين إستهدفهم الارهابيّون ورجال المفخخات لنسفهم أكثر من مرّة وكنت كلما سمعت بنبأ انفجار هنا أتقطع ألماً وحرقة وأكادُ أرى عيون هؤلاء الأبرياء حمراءَ في الفجر.. مفخخات عديدة انفجرت في هذه الساحة حتى صار الناس يتحدثون عن "طيران الكيّات" والكيّات هو جمع كيّة الاسم الذي يطلقه العراقيون على سيارات النقل الصغيرة من نوع (KIA). في هذه الكيّات قُتل مئاتٌ من العمّال الأبرياء الذين لا يسعون إلاّ لكسب قوتهم...

إن الأرقام المتواترة اليوم لضحايا الإرهاب والاحتلال والقصف العشوائي قد بلغت مستوىً يبعثُ ليس فقط الرعب بل وأكثر يثير فينا السؤال الجوهري، وهو: ماذا صنعنا؟ وأيّ ثمنٍ ندفع؟ ومتى يكف هذا النزيف؟

عندما نعرف أن هناك ثمانية ملايين بين أرامل ويتامى وأن هناك خمسة ملايين بين مهجر داخل العراق ومنفي خارجه، عندما نعرف أعداد الجرحى والمعوّقين التي لم تُحصَ بعد، عندما نعرف حجم الدمار والحطام ونهب الثروات وكل هذه المحصلة القاتمة نتساءل: أيّ ثمن يدفع العراقي اليوم من أجل حريّته من أجل استعادة كرامته ومتى يكتمل هذا الحلم، متى يتعافى هذا الجريح الممدد على خارطة عمرها التأريخ.

• • •

أتذكر جسر الجمهورية والباص الأحمر المكتظ بطابقيه يلهث فوق

صدر الجسر، يحملني من "الكاظميّة" إلى ساحة التحرير حيث ألتقي بالأصدقاء الشعراء والفنانين وحيث النهر السمير الذي لا يرقد والراوية الذي لا ينسى والقارئ الصامت الذي يعرف كل شيء ولا يقول.

أتذكره جسر الجمهورية عندما عبرته يوماً في أحد أشهر الصيف في أواخر الستينات وكنت في واحدة من تلك السهرات الطويلة مع الأصدقاء أنفقتُ خلالها كل ما لدي من نقود دون أن أتذكر أن علي أن أحتفظ بما يكفل أجور باص ركاب صغير من نوع ما يسمى الـ "فورتات" – يومذاك لم تكن هناك كيّات – أو تكسي يعود بي إلى منزلي في الكاظمية على مبعدة ما لا يقل عن خمسة عشر كيلومتراً... فبغداد عاصمة أفقية، الأحياء تنتشر على مساحة تقرب من ستين كيلومتراً شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. ولهذا كان عليَّ أن أمشي كُلَّ الليل حتى الفجر لأقرعَ بابَ بيتي في أول ساعات الصباح... كانت يومها بغداد واحةً من الأمن والطمأنينة والأحياء التي كنت أمرّ بها كانت ترقد في سُبات لم تعد تعرف مثله اليوم والشوارع الخالية ليلاً ليس فيها أي شبح لا تخرقها رصاصة ولا صيحة ولا تمزق ليلها قذائف وقنابل ضوئية. كانت الشوارع تنام هي الأخرى وأنت عندما تسير تشعر أن عليك ألا توقظ نعاسَ الرصيف فهو الآخر يخلد الآن بعيداً عن عناء المارّة إلاّ أصواتُ نباح بعض الكلاب السائبة المتواجدة في المناطق الخالية أو في الأزقة الخلفيّة.

هذا الطريق كنت يومها أسير فيه علياالأقدام للمرّة الأولى وقد إعتدت أن أقطعه في باص مصلحة الركاب الأحمر ذي الطابقين حيث أفضل الجلوس في الطابق الثاني، في مقدمة المقاعد تماماً فوق موقع السائق الموجود في الطابق السفلي. هو شارع طويل ممتد من وسط العاصمة إلى شمالها ويسمى شارع (14/ تموز) يقع على جانبه في الأعلى منتزه الزوراء، أعظم حدائق العاصمة والنافذة الخضراء الكبيرة المعدّة على شكل حديقة عصرية. في تلك السنوات كان العشاق يلجأون إليه لابتعاده عن المدينة وكذلك لسعته وإمكانية الاختباء بين أشجاره. هجرهُ البغداديون بعد أحداث وقعتْ فيه واعتداءات كثيرة إضافة إلى بعض الجرائم وخاصة أيام النظام السابق وظل الغبار والركام يملأ ممرات وواحات هذا المكان.

بعد مئات الأمتار من هذا المنتزه يوجد موقع هام في بغداد تتقابل فيه محطّتان الأولى محطة غربي بغداد للقطارات الذاهبة شمالاً إلى الموصل وجنوباً إلى البصرة وهو مبنى كما يقال "كولونيالي" أي على الطراز الاستعماري ضخم وعلى بابه توجد عربة قطار قديم... والثانية تتمثل في مطار بغداد الدولي سابقاً قبل أن يطلق عليه إسمهُ الحالي "مطار المثنّى" وقبل أن يُهجر كليّاً.

من هذا المطار طرتُ أول مرّة في حياتي وكان ذلك يوم 3 تشرين أول 1970 ذاهباً إلى الجزائر... كان يوم ولادة حقيقيّة وكانت تظاهرة من

الأهل والأصدقاء والقريبين سبقها لقاء حاشد في المنزل وأحاديث ووصايا ودموع وعناوين ووعود بعمل ومراسلة وعدم إنقطاع... مرّة واحدة في حياتي سافرت بهذه الطريقة وما زلت في كل سفرة، حيث لم أهدأ منذ ذلك التأريخ، إلاّ وتخطر على مخيّلتي صور ذلك اليوم الذي كان سفري فيه حدثاً لكل أطراف العائلة الممتدة من جنوب العراق إلى بغداد.

كان مبنى المطار جميلاً وفيه بعض الطائرات، وأذكر أنني إستقليت طائرة انكليزية الصنع أحفظ إسمها إلى الآن تابعة للخطوط الجوية العراقية من نوع ترايدنت TRIDENT.

هذا المطار اليوم صار قاعاً صفصفاً تنتشرُ في مدارجه وفي ساحاته النباتات الطبيعيّة وتَعوي في أعماقه الكلاب السائبة وقد بدأ صدام حسين في الفترة بعد إحتلال الكويت بناء جامع ضخم في وسطه، أوقيانوس اسمنتي على شكل قباب وجدران عالية. كان يريد له أن يكون أكبر جامع إسلامي ويقال أنه كان يقصد أن يقيم هذا الصرح في هذا المكان تحدّياً – كعادته – لكل الجوامع الكبيرة المعروفة في العالم الاسلامي.

لكن، وبسبب الحصار الذي فرض عليه طيلة ثلاثة عشر عاماً بعد طرده من الكويت، توقف البناء فيه وقد ظهر هيكلُه الخَراسانيّ إلى الوجود وكأنه جبل من اسمنت وحديد وحصىً. منظره لا يبعث إطلاقاً على خشوع وإيمان بل أكثر منه على عنفوان ورعب.

كنت أواصل السير في الليل العميق في محاذاة المطار هذا عندما التفتت إلى الجهة المقابلة من الشارع وكان أفرادٌ لم أتبيّن ملامحهم في الليل يهرولون داخل مقبرة قديمة يقال أن فيها قبور تعود إلى العصر العباسي.

في هذه المقبرة – كما أذكر – يوجد ضريح يقال أنه لـ أبي عمارة الحسين بن منصور الحلاّج وكنت قد زرته في أحد الأيام حيث أن من الغريب أن يكون للحلاّج قبر، هو الذي صُلِبَ على دجلة لأكثر من يوم ثُمَّ قطّع جسَدُه وأحرق ونثر رمادُه فوق دجلة كما يقول المؤرخون...

كيف إذن دفن هنا، وهل هذا ضريحٌ لجثته أم مجردُ ذكرى صانَها مُحبّوه الذين أرادوا أن يُبقوا على أثر له. على أي حال دجلة ليست بعيدة عن هذه المقبرة وربما وجد محبّوهُ هنا بقيّةً ما له...

هذا الحلاّج، العابد العاشق المتمرد المجنون الزاهدُ الغريبُ الشاعرُ الصوفيُّ الكافرُ المؤمن الذي كان يطوف شوارع بغداد وأسواقها في مطلع القرن العاشر الميلادي وهو يصرخ بحب الله وعشقه بعد أن صار يكابدُه ويعاني منه راجياً قتله وتحريره من جسده، في يوم من الأيام أطلق "مفخَخته" الشهيرة التي فجّر فيها نفسه فقط ولم يؤذِ أحداً سواه وذلك عندما صاح بأعلى صوته بين الناس:

"استوقفني ربي في شوارع بغداد،

فقلت له من أنتَ؟

فقال أنت"

هذه الكلمات كانت تكفي لتنسفَ جسدَ الحلاّج صلباً وتقطيعاً وحرقاً في تلك الأيام ولكن الحلاّج عاش فترة طويلة مؤمناً بهذا الفكر الحلوليّ دون أن يتعرض له أحد وكان صلبه فقط عندما أصبح يشكل خطراً على الخلافة وجمهور المسلمين يومذاك.

أما اليوم فليس لقائل مثل هذا الكلام موقع في الحياة بين الدول الإسلامية جمعاء، لقد كان الدين أوسع صدراً والسلطة أكثر إحتمالاً والناسُ أكثر إيماناً وتسامُحاً في آن.

في تلك الليلة كنت أنقل خطواتي بخفّة أدوس الأحجار تارة وأغطسُ قدمي في الماء تارة وأحياناً أسرع ولكنني كنتُ أغُذُّ السير في أعماقي كما في الشارع معاً وفي آن. وهكذا إنقضى الليل.. وصلتُ ولم أصل.

● ● ●

أتذكر تلك الليلة لأتأمل ماذا حل بالعراقيين اليوم. هل عقود ثلاثة من السنوات كافية لتمسخ شعباً ولتحيل ساحاتٍ ومرابعَ عاصمةٍ إلى متاريس وخنادق وسراديب؟ هي سنواتٌ لا أعرف حسابها بأي تقويم، لا ميلادي ولا هجري ولا سواهما، سنوات جاءت من زمن طوفاني

أسود غمر الأيام وسدّ فجوات الحياة وأباد الحرث والنسل... سنوات سيدفنها العراقيون وسيغسلون بماء أنهارهم العظيمة أدرانها... أعرف ذلك وأكاد أقتنعُ بكل ذرّة في أعماقي به ولكنني لا أقدر بل لا أريد تبريرَه فالعراق قامة عظيمة دامية أيضاً...

أتذكر غرائبَ الأساطير التي كانت تصف هذه الأرض تُوعدها بسنوات من الدم والدمار وكأن صوت العراق في الذاكرة الغيبية الانسانية يؤشر إلى قاموس يكتظ بمفردات الخلق والابداع والدم والعطاء والدمار والذهب والنار، كلها مثل نهر يتدفق من شمال الماضي إلى جنوب الحاضر ومن سماء الآتين إلى أرض الميّتين.

لم أكد أنسى بعد حكاية "إينانا" التي أقسمتْ أن تحيل المياه في أنهار وآبار بلاد ما بين النهرين إلى دماء إنتقاماً من شوقلتودا، الفلاح السومري الذي اغتصبها...

ولم أَنسَ بعد ملحمة "الشعب ينوح" التي تعود إلى 2500 عاماً قبل الميلاد وفيها وصف لمأساة شعب في بابل سالت دماؤه بحيث "سدّت ثقوب الأرض كما يسد الرصاص ثقوباً في الحجر والطين.. على حد تعبير الملحمة.

ما زلت أتذكر الكاهنة الجاهلية "طريفةُ الخير" التي كانت تقول: "من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاقِ وكنوز الأرزاق والدمَ

المهراق فليلحقْ بأرض العراق" وكأني بها اليوم تُطلق نبوءتها هذه حيث الذهب والدم يسيلان معاً فوق أديم هذا الشعب.. ما زلت أتذكر كل الحجّاجين والحلاجيين الذين، بسيوفهم ودمائهم ظلّوا في الذاكرة الجمعية لشعب بكامله أحياءاً وأكاد أقول "يرزقون"

مرّت أربعة عقود على تلك الليلة واليوم أعود في وضح النهار لا أجرؤ على أن تطأ قدماي الأرض خارج سيّارتنا وبمعية الحرس المسلحين الذين يتلفتون كلصوص يتأهبون للفرار.

ها نحن على أبواب شارع الرشيد، هذا الموعد البغدادي المزدحم بالمارّة والغرباء والأهل والباعة والمتجولين والسيّاح والفارّين من الجيش والسكارى والساسة الهاربين المتخفين والنساء المستبضعات والجند والشعراء والفنانين وكل من ينبضُ في بغداد لا يمكن إلاّ أن تدوس أقدامُه هذا الشارع الذي إن دخلته لن تخرج منه كما كُنتَ دخلتَ، لأنك لن تغادره إلاّ وقد ترك بصماته في الذاكرة، في اللاوعي، في المخيّلة، شارع الرشيد كان وطناً بحدّ ذاته وطناً مصغراً؛ الأحياءُ حواليه مُدُن حدودها أزقّة وجدران وأسواق والناسُ فيه شعب محتشد لا ينام.

كان شارع الرشيد في بغداد الخمسينية والستينّة المكان الذي لا بد منه.. لا يمكن لبغدادي أو غير بغدادي عرف بغداد دون أن يعشق أو يتعلق بشكل أو بآخر بشارع الرشيد..

كان ميداناً للانفتاح الاجتماعي والحياتي، تنتشر على أرصفته أنواع المحال التجارية التي تشكل القلب النابض والعين الساهرة لبغداد.

يُعدُّ هذا الشارع من أهم ملامح بغداد المدينيّة المعاصرة وقد واكبَ تأريخُه تاريخَ العراق المعاصر فقد بدأ شقُّ الشارع في عام 1916 حيث يحكى أن رؤوف بك الجادرجي وهو شقيق الزعيم الوطني كامل الجادرجي وكان رئيساً لبلدية بغداد قام بمد حبلين طويلين فوق الدور والمساكن لتحديد مساحة الشارع وكان سقوط الحبل على أحد البيوت يعني كارثة على أهلها وكثيراً ما كان الحبلُ يتحول من دار إلى أخرى لأسباب تتعلق بالنفوذ تارة وبالرشوة أخرى.. من هنا نفهم أن سبب الالتواءات في الشارع لم يكن لعبقرية هندسيّة ولا لضرورات في بناء المدنية بل هي منعطفات وسراديبٌ من نوع آخر فلا داعٍ لبحث هذه التضاريس البغدادية من وجهة النظر المعماريّة أو الدينيّة كما يحلو لبعض الدارسين...

تم إنشاء الشارع في مدّة وجيزة وجرى إفتتاحُهُ بذكرى إعلان الدستور في 23/ تموز/ 1916.. هل هذه مفارقة ثانية أن الدستور الجديد للعراق يأتي هذه الأيام وقد صار هذا الشارع ركاماً وحطاماً؟ دستور أوّلُ بنى الشارع ودستورٌ ثانٍ حطَّمهُ!

دخلت سيارتنا الشارع وكانت الصدمة الأولى في مظهر الوحشة التي

تتربع فوقه... لا أحد.. إلا بعض الخطى السريعة المنفلتة من ركن إلى آخر تقطع الشارع وحدها كما لو أن المدينة قد هلك كل أهلها.. كما لو أن طاعوناً جديداً أباد بغداد كما لو أن هولاكو لم يترك رأساً في بغداد، كما لو أن الفيضان التأريخي الذي غمر بغداد عاد ليجرف الحياة وليهلك الزرع والنسل، كما لو أن هَولاً إسمُهُ صدام حسين قد أعاد بغداد إلى ما قبل المنصور ماحياً كل أثر ومبيداً كل حي، كما لو أن برابرة "القاعدة" ووحوش التطرف قد خرجت من غاباتها لتلتهمَ الأحياء والموتى معاً، كما لو أن أهالي بغداد بدورهم مثل أهالي موسكو قد أحرقوا مدينتهم وهربوا خارجاً تاركين النار والدمار لنابليون هناك وللمحتل هنا يدخل المدينة جدراناً فقط.

كما لو أن بغداد تواصل من جديد دورة الموت التي وُعدتْ بها والتي نذرت لها منذ أن خط المنصورُ حدودَها بالنار ليعمّدها بالسيف العباسيّ وليسميها من بعدُ بـ مدينة السلام.. وهو الاسم الذي تُعطيه اليوم الملايين من العراقيين لأكبرَ مقبرة في مدينة النجف.

هل يخلطُ العراقيون بين السلام والسلام؟ هل هو التباسٌ ميتافيزيقي؟ هل لا سلام للعراقيّ إلاّ في وادي السلام؟ وهل عندما سمّى المنصور عاصمته الجديدة بـ "مدينة السلام" وهو وريث أبي العباس "السفّاح" الذي يحمل بجدارة هذا اللقب، أول خلفاء بني

العبّاس يعرف أن هذه الأرض كانت مقبرةً لآلاف الأُمويّين ولهذا فإنها أيضاً وادي سلام.. أقامَهُ سلفُه وقد استمر ذلك في لاوعي العراقيين؟ الكل يعلم أن الدولة العباسية قامت على جثث الأمويين وكان الخليفة الأول هو الذي حظي باللقب الشارة "السفّاح" وهكذا قامت أكبر امبراطورية اسلاميّة.

على أي حال لم تعرف بغدادُ منذ ولادتها سلاماً حقيقياً... دائماً... ولم تطُل ومضاتُ تأريخها التي تألقت فيها وإزدهت إلاّ بضعة عقود هنا وبضعة سنوات هناك.. بينها كانت المدينة مسرحاً لمختلف أشكال العنف والدمار وساحةً للموت الجماعي.

• • •

"شارع الرشيد" لا، قطعاً لا أرفض أن أرى، أرفض أن أسمع شيئاً من هذا، لن أقتنع ولن أكرر هذه الكلمة بعد. لا لم أرَ شارع الرشيد ولم يكن شارعاً ولا رشيداً بشيء.. لا لم أمرَّ من هنا يوماً ولم أحترقْ تحت شمس بغداد وأنا أدوسُهُ من رأسه حتى أخمص قدميه. من قال هذا؟.. إن ما أرى الآن ليس إلاّ مشهداً له علاقة بمدينة أثرية مندثرة أحرقها الغزاة قبل أكثر من عشرين قرناً، لا يا صديقي، لسنا في شارع الرشيد إن سائق السيارة بالتأكيد قادنا إلى موقع نكتشفهُ للمرّة الأولى، ربما هي "سُبَرُ"

المدينةُ التي أحرقها الغزاة قبل خمسة آلاف عام. أو أيّةُ مدينة كانت قائمة ثم لُعنَتْ ومُسختْ ونحن نهبطُ فوقَها الآن مثل كائنات حلمية أسطورية. نحن أمام مشهد لا يمت للحياة بصلة، فكيف يكون هو شريان بغداد المتدفق؟ إنني أرى هياكلاً تتهاوى، جدراناً تنزل مثل شلال حطام يتراكم فوق الأرض دون إنقطاع.. بينها هيكل أكاد أتذكر ملامحه.. ها هو المدخل الرخامي على يساره، هذه الهوّة الكبيرة مثل عين مفقوءة.. إنه كُشكُ التذاكر في هذه السينما التي تعلمنا فيها شكل الخوارق والمعجزات تتدفق صوراً على حائط. أجل، "سينما الخيام" عندما دخلتها أول مرّة مع خال لي وكنت في التاسعة وقد ظهرت على الشاشة أمواجُ بحر هائج أحسست يومها بالخوف من أن يجرفنا الماء فصحتُ بأعلى صوتي. كانت صيحتي تلك مثل حجر يرمى في ماء راكد. أحسست بعدها بالحماقة التي ارتكبتها الأمر الذي أربكني ولم أستطع مجاراة الفلم.

أي فلم تدميريّ تتوالى صورُه أمام عينيّ الآن؟ لا، هذه المرّة ليس هو بفلم... لا توجد كاميرات ولا مكبرات صوت ولا خُدع سينمائية هذه المرة إنه الطوفان، طوفان حقيقي يغمرُ كل شيء ونحن لسنا مشاهدين بل جُثثاً تطفو فيه حيّةً مثل أشرعة وصوراي محطمة أو شرائح فلّينيّة تلطمها أمواجه.

بين فلم الأمس الذي أخافني طفلاً وبين شاشة اليوم التي تجتاحني

بطوفان دمها مرت قرابة خمسة عقود، حدث فيها ما كان ينذر به العرّافون والمشعوذون والآلهة والأنبياء والسيّافون.. أجل صدقوا كلّهم هذه المرّة وكما في كل مرّة أراهم جميعاً اليوم فوق جسدي يدوسون ومن دمي ينهلون.

ها نحن نتقدم في وسط ما يسمّى بالشارع، إجتزنا المقهى البرازيليّة الشهيرة دون أن أعلم وعندما سألت عنها قالوا: عبرناها... عدت للنظر لم تكن سوى صفائحَ من المعدن المقفلة.. خطوط وكتابات وصدأ.

كنت أتأملُ على مبعدة أمتار مرأى أجمل وأرقى مخزن في بغداد الخمسينيّة والستينيّة وهو ما يسمّيه البغداديون "أورزدي"

لم يكن يطأ "أورزدي" هذا إلاّ الميسّرون وأبناءُ الطبقة البرجوازية والحاكمة، كان شيئاً يُشبه ما يسمَّى بباريس "مخازن السامارتين" "Samaritaine" بالضبط، كنت أتذكر "أورزدي" كلّما مررت بمحلات السامارتين Samartiaine.. هناك لم أكن أعرف وأنا أردد مع البغداديين بالدارجة العراقية اسم "أورزدي" ما معنى هذه الكلمة ومن أين جاءت. وكنت أظنها اسم صاحب المكان ولكنني في فرنسا قرأت ريبورتاجاً صحفيّاً وجدت فيه اسم "أورزدي باك" مكتوباً باللغة الفرنسية لأنه من أصل فرنسي وقد وضعه كاتب المقال بشكل تلقائي باعتباره نوعاً من التوثيق في نقل الأسماء.. وإذا بي أقرأ:

Aux roses du bac

أي إلى أزهار المزهرية.. هكذا كان يُسمّي أهالي بغداد نافذتهم هذه المفتوحة على العالم الجديد.

بلهفة وترقب نظرت إلى المبنى الذي صار قطعةَ فحم هائلة بزجاجها المحطم وكأنَّ دخاناً ما زال يخرج من بين حطام النوافذ ومن ثقوب الجدران.. كأن بضائعها ما زالت تحترق إلى الآن، يتراءى أمامي مشهد الحريق وقد مرّت عليه بضعُ سنوات، لا أعرف لماذا صُرت أرى اللهبَ والنار والدخان ورائحة القماش والبلاستيك وذُعرَ الباعة والزبائن وصيحاتِ الجرحى والمحترقين والناسُ والهلعُ وكل المشهد بكامله استعدته وكأنني أراه يحدث الآن، كان لا بد لي من أن أشهد الواقعة أن أرى ما حدث، كيف آل هذا الصرح الفردوسي يومذاك إلى جحيم وكيف أغلقت بغداد أبواب أحد أكثر رموزها إنفتاحاً وتبادلاً مع العالم..

لقد كان "أوروزدي" رمزاً للتحضر والحداثة في العراق المعاصر وقد أسهم بشكل خاص في خلق الحركة التشكيليّة الحديثة في الخمسينات والستّينات لأن زيت الرسم وحمّالات اللوحات وكل لوازم الرسم والأصباغ كان يجدها طلبة الرسم فيه ولا يوجد مكان آخر في بغداد يُقدم هذا النوع من البضائع التي كانت نادرة في بغداد وبهذا المعنى فإنه يمكننا اعتبار "أوروزدي" عنصراً أساسياً في حركة الحداثة التشكيليّة في عراقنا المعاصر.

أعرف أن جبلاً آخر من الحقد أعلى من قمم كردستان العراق يكمن في صدور من يتحيّنون الفرصة للانتقام من هذا "الغرب" وزبائنته في العراق.. أعرف أن آلاف النظرات التي كانت تخترق زجاجه كالرصاص ما زالت ملتهبةً، أعرف أن جيلاً كاملاً من البغداديين الذين عرفوا بغداد الحاضرة، بغداد المدينة قد صاروا الجيل الملعون من قبل النظام السابق وطبقته العسكريّة وعقليّته الريفيّة والبدويّة، لأن هؤلاء المتسلطين والأغنياء الجدد، بالرغم من توفر كل الامكانات الماديّة والسلطة لديهم لم يتمكنوا من الامتزاج بهذا الجيل البغدادي الذي كان يضع قدماً على دجلة وأخرى على بوابات العالم، يبدو أن هذه هي صورة المعارضة الأعمق لوجود النظام السابق وليس شكلها السياسي الخارجي.

وهكذا شيئاً فشيئاً تريّفت بغداد. بغدادُ الحاضرة المدينيّة النموذجية في الخمسينات وأوائل الستينات كما وصفها "زكي مبارك" في "ليلى المريضة في العراق"

بغداد هذه بدأت تنهار منذ الثورة في 14 تموز 1958، أي منذ أن دخل الجيش سُدّةَ السلطة، فمهما كانت شعارات الاستقلال والوطنية التي حملها عبدالكريم قاسم ومهما كانت الأحزاب الوطنية المتصارعة فيما بينها تضم حشوداً من العراقيين من مختلف الطبقات والمشارب لكن الهيمنة والسلطة العليا ظلّت بيد الجيش، هذا الجيش وحكمه المتتابع

سواءً تحت قيادة عبدالكريم قاسم ومن بعده عبدالسلام عارف وهو عسكري أيضاً وبطانته عسكرية حتى سقوط صدام حسين أي نصف قرن من الحكم العسكري المتواصل كان كافياً لترييف بغداد...

الجيش الوطني أو سواه هو ريفيّ بالانتماء والعادات وأسلوب الحياة والجيش الذي هيمن أكثر من نصف قرن بشكل مباشر تارة وأخرى غير مباشر قام بتدمير بغداد المدينيّة في العمق محولاً هذه العاصمة الألفية العريقة إلى ريف شاسع قطره أكثر من ستين كيلومتراً ونفوسه التي اتسعت من أقل من مليون إلى خمسة ملايين في بضعة عقود.

هذا الاحتلال الريفي لبغداد لا يذكره أحد ولا يلتفت إليه لا السياسيون ولا المؤرخون ولاَ حتى الدارسون الأكاديميون، إلاّ فيما ندر أو بشكل عارض فقد بقي مخفيّاً وراء ستائر السياسة تارة والدين أخرى، لم يجرؤ أحد أن يضع قدميه في هذه المنطقة المحرّمة من تأريخ وتطور المجتمع العراقي إلا الباحث الكبير الراحل علي الوردي الذي تطرق إلى هذا الجانب في سياق الحديث عن ظواهر إجتماعية ودينيّة في أكثر من مناسبة ولكن دون أن يفرد له بحثاً ودراسة مستفيضة.

إنني أعتقد أن وراء هذه الشاشة المعتمة، ووراء جدران "أورزدي" المتفحمة جيلٌ كاملٌ نشأ وتربّى شيئاً فشيئاً ضد الحضارة المدنيّة باعتبارها إمّا أعراضاً أجنبيّة بعيدة الصلة بالواقع والتقاليد وبالتالي بالهوية العراقية

وإما في كونها مشهداً لبحبوحة طبقيّة تتمتع بها القلةُ وسطَ مُحيط من الفقر والجهل ولهذا كان لا بد من حرقها ولا ندم... ساعد على نشر هذا المفهوم بعض الأحزاب التي تتبنى الصراع الطبقي مثل الحزب الشيوعي الذي كان حليف الزعامة العسكرية لعبدالكريم قاسم والذي أَلَّبَ الملايين من أبناء الأرياف "الكادحين" تحت شعارات محاربة الطبقة البرجوازيّة، ضد رموز المدينة والمدنيّة دون أن يُعلن عن ذلك جهاراً وحتى دون أن يكون هذا الأمر غاية يقصدها ولكن جدلية صراع الطبقات التي يتبنّاها من ناحية و"الجماهير" الغفيرة التي يستند إليها في قواعده كلها كانت تعمل وبقوة ضد الوجود المدينيّ العراقي. وحتى حزب البعث الذي كان ينادي – على طريقته – بالاشتراكية العربية وكُلُّ المد اليساري المتطرف في تلك السنوات وكان يشكل أغلبيّة، كلُّ هذه القوى مُجتمعةً مع قوى الجيش الريفي في مجمله وفي كيانه ومنطقِه، كلُّها عملت على الإطاحة بالكيان المديني لعاصمة العراق. والغريب في الأمر لم يتطرق أحد من الباحثين أو المراقبين السياسيين إلى المعنى الحقيقي الذي يكمن وراء حرق الرموز المدينيّة في العراق وهي كثيرة وليس "أورزدي" إلا واحداً منها ويمكنني أن أضيف فإن الانتقام من المتاحف الوطنية في بغداد وغيرها من المدن ومن مراكز الفنون العراقية وحرق متاحف الفن الحديث يشكل جزءاً من موجة الاجتياح الريفيّة والبدوية لمدينة بغداد... إنه تدمير لرموز

العاصمة، لكيان المدينة قبل أن يكون مجرد نهب وسطو يرافق جيش إحتلال.

كنّا منذ أواخر الستينات نلحظ مشاهد من هذا "الغزو السلمي" الريفي البدوي لبغداد بعد أن بنى عبدالكريم قاسم في مطلع الستينات مدينة "الثورة" التي صارت مدينة "صدام" واليوم تعرف بـ "مدينة الصدر"

حدث هذا في بادئ الأمر عندما بدأت بغداد تتحول إلى مركز إشعاع حضاري متمدن لكل العراق وعندما شرع الإقتصاد يتحسن نوعاً ما وصارت في المدينة قوة جذب عالية لكل أبناء الريف والعشائر وكان ذلك في بداية الأمر مؤشراً إيجابياً لو جرى تنظيمهُ وبرمجته، لتحولت بغداد إلى عتبة تمدن حقيقية لكامل سكان العراق منذ نصف قرن تماماً.

ولكن ليس فقط لم تلتفت الدولة لهذه الظاهرة وتحتويها وتباشر بتطويرها، بل أهملت هذه الهجرات الداخلية وتركتها تتعاظم على أبواب بغداد خاصة بعد فشل الاصلاح الزراعي الذي أطلقه عبدالكريم قاسم إبان حكمه، عندما نزح آلاف الفلاحين من جميع أرجاء العراق وخاصة من الجنوب إلى بغداد بحثاً عن العمل ولم تستطع الدولة إيوائهم إلاّ بعد أن بنت لهم هذه المدينة وسواها من ضواحي بغداد كمدينة "الشعلة" و"الحريّة" التي صارت شيئاً فشيئاً مثل "مدن غيتو" على أبواب بغداد..

وبهذا المعنى فإن ثورة الإصلاح الزراعي العراقي، عوضاً عن أن تطور الأراضي وتنعش الزراعة وتعيد الكرامة للفلاحين حوّلتهم إلى خدم في الدوائر الحكومية وإلى باعة متجولين في شوارع بغداد وإلى سائقي سيّارات الأجرة الجماعية، هكذا يحدث الاصلاح في بلادنا وهكذا تتحول حركات الاصلاح إلى معاول هدم وتشويه ما بعده تشويه..

أبناءُ مدينة "الثورة" وشبابُها الذين يعيشون على أبواب بغداد، الحاضرة المدينية الأكثر رقيّاً ليس فقط في العراق، والتي كانت، بشهادة زكي مبارك، القادم من القاهرة في منتصف الأربعينات، تقدم صورة أكثر رقياً بالمفهوم المديني للحياة الاجتماعية والعلاقات من القاهرة.

ومنذ ذلك الحين بدأ الزحف الريفي على معالم المدينة وصار يأخذ أشكالاً مختلفة تارة يكون في الظهور بشكل صارخ في ملامح الحياة اليومية والزيّ وأسلوب العيش وتارة في طراز المباني والتبادلات التجارية والقيم الاجتماعية وسواها..

أذكر مرّة أنني في أواخر الستّينات في منطقة العرصات وهو حي بغدادي إلى حد ما متمدن فوجئت بجماعة من الشباب يتجوّلون مرتدين بجامات مهترئة قذرة أو دشاديش، يحملون على الأكتاف مسجلات تصدح بأغاني ريفيّة وهم يترنمون بأعلى صوتهم، يجوبون الشوارع والمحال التجارية بمظهرهم الذي كان يشكل في تلك الأيام خرقاً

وتجاوزاً بكل معنى الكلمة لطراز الحياة وأسلوب المجتمع المديني البغدادي العريق وكان في نزهتهم هذه وأسلوبُها شيء أكثر من مجرد تجوال أو سهرة بريئة.. كانوا يتحدّون ويسخرون وكان في كل مظهر من جولتهم هذه ملمحُ إنتقام غير معلن.. إنتقام ريفيّ من حيّ مدينيّ متميز.

لم أَنسَ هذا المشهد حتى اليوم وقد استعدت صورته عندما هجم آلاف العراقيين على دوائر الدولة ومراكزها ونهبوا كل شيء حتى الفلّين في سقوف العمارات، نزعوا حتى المعدن والرصاص في الأسلاك الكهربائية ليصهروها ثم تباع من جديد في أسواق العراق وخارجه.

ظاهرة نهب وسلب الدوائر الحكوميّة التي كانت أولى صور سقوط النظام الدكتاتوري ودخول القوات الأجنبية المحتلة بغداد، أعترف أنها فاجأتني كثيراً في بادئ الأمر وصارت محور تساؤلات واستغراب واستهجان داخل العراق وخارجه. هذه الظاهرة لا يمكن فصلها عن "ترييف" بغداد والعراق الذي نحن بصدد الحديث عنه لأن تدمير الدولة المركزية والانتقام منها ينطوي في داخله على فكرة عميقة هي إعادة هذا الكيان إلى شكل أكثر بدائية وهي العشيرة من ناحية والجامع من ناحية أخرى وكلاهما يلتقيان في الموقف من الدولة "الغاشمة" التي كان رمزها الدكتاتور. وبهذا فإن المبرر واضح و"مقنع" يضاف إلى ذلك كون السلطة أيام الدكتاتور كانت إستهدفت بشكل مفترس الدين والعشيرة وحاولة

بنجاح أقل أو أكثر تطويعَها وقد نجحت مع العشيرة أكثر من الدين. ولذلك أسبابُهُ فالعشيرة مهما كانت جذورها ممتدةً في المجتمع فإنها تبقى زائلة مع الحياة أما الدين فيمدّ جذورَهُ مع جذور جنائن "الفردوس" إلى ما وراء الحياة يضاف إلى ذلك فإن العشيرة تستندُ بدورها إلى الدين لمواجهة سلطة الدولة التي تتحداها على الدوام..

ولكن هذه الظاهرة بالرغم من أنها تعكس في أعماقها "الهجمة الريفيّة" ذاتها على بغداد ويمكن إعتبارها هذه المرّة تتويجاً للريف على المدينة التي لم يبق منها إلاّ الجدران إلاّ أنها تنطوي على معانٍ أعمق وأوسع من هذا، ذلك لأنها تعكس عدم إيمان وعدم إقتناع بعيد المدى بالمؤسسة والنظام بشكل عام أي أنها رفض كيانيّ لـ كيان الدولة بكل مفاهيمها ومن هنا فإن الثروة الوطنيّة تتحول إلى شيء مباح لكل من إستطاع إليه سبيلاً وفي حالة الحروب كما في الغزوات بالمفهوم القبلي تصير عملية النهب والسلب غَنماً وفوزاً يفخر به أصحابُه ويحققون بموجبه مواقع متقدمة في السلم الإجتماعي بالإضافة إلى الكسب المادي. للأسف أقول أن هذا المفهوم في العلاقة مع الدولة لم يكن طارئاً ومقتصراً على العامة من الفقراء وأبناء الضواحي والأحياء الفقيرة في بغداد ونواحيها كما كنت أظن لفترة ليست بالبعيدة ولكن إرتباط هذه الظاهرة التي كانت في البداية مرافقة لاحتلال بغداد وسقوط الدكتاتورية ومقتصرةً على العامّة

من الناس، بالظاهرة الأهم والأخطر والتي تلتها مباشرة وهي ما عرف بـ"الفساد الإداري والمالي" في الدولة العراقية بحيث أدرك مستوىً ودرجة لم يسبق لها مثيل لا في العراق ولا في العالم بحيث أعطت الاحصاءات العالمية والأميركية المطلعة وسام الدولة "الأفسد" في العالم إلى العراق وصار الكونغرس الأميركي يعقد جلسات خاصة لبحث هذه الظاهرة التي وصلت أرقام النهب والسرقات والفساد المالي فيها إلى مئات المليارات.. وقد شملت أسماء عدد كبير من السياسيين والقادة والدبلوماسيين وموظفي الدولة الكبار..

وبعيداً عن الدخول في الأسماء إلاّ أننا لا يمكن إلاّ أن نربط هذه الظاهرة الكبيرة بالظاهرة الأولى الصغيرة، لأنها تنطلقُ من مبدأ واحد؛ وهو نهب كل ما يقع تحت يد "المواطن" من ممتلكات عائدة للوطن.. وأمام هذه المعادلة المتخلفة لا يكون المواطن مواطناً ولا الوطن وطناً ولا يختلف الأمر أمام فعل من هذا النوع سواءً أكان المواطن فقيراً بائساً يسرق كرسيّاً أو وزيراً أو رئيسَ وزراءٍ يسرق بالملايين.. كلاهما "مواطنان" يملكان، بهذه الممارسة، نفس المفهوم ونفس القيمة لـ"الوطن" وبهذا المعنى فإن ظاهرة "الحواسم" هذه التسمية التي أطلقها العراقيون على النهب والسطو التي قام بها جيش صدام حسين في الكويت أولاً وتكرّرت بعد سقوط نظامه في بغداد، هذه "الحواسم" التي

صارت لها أسواق مخصصة في العراق تحمل اسمها، ما زالت مستمرة وتشكل داءً عميقاً في الشخصيّة العراقية التي تواجه اليوم التحدي الأكبر الذي لا يريد بناء "دولة عصريّة" وحسب بل يرفض أي ممارسة لبناء نظام ديقمراطي ليبرالي تعددي.. أي إننا نعود إلى نقطة البدء ذاتها التي إنطلقنا منها وهي الصراع بين الريف والمدينة، لأن صورة هذا النظام العصري المنشود هي بالضرورة "مدينيّة" لا ريفيّة بسبب فلسفته وتعقد بنيته وخطابه والأسس العصريّة التي يقوم عليها في حين ظل مفهوم التريّف حيّاً تغذّيه فكرة الانتقام من الماضي الديكتاتوري ومن كل رموزه وما شكلُ الدولة الجديدة – في مفهوم التريّف هذا - إلاّ "مسوّغٌ" للانتقام بشكل أو بآخر من تلك الحقبة التي ساد فيها الديكتاتور واستحلّ أرواح وثروات البلاد له ولعائلته وزبانيته الصغيرة.

ولهذا ما زلنا على الأقل في هذه السنوات الأولى من سقوط الدكتاتور نعيش في فكرة إستعادة الحق والانتقام والثأر واسترداد بعض الحقوق والكسب والأخذ بجزء – أي جزء – من هذه الثروة التي صادرتها الدولة العراقية الجائرة منذ تأسيسها... هذا هو لسان حال طائفة كبيرة من العراقيين الذين إنضمّوا تحت راية "التجربة السياسيّة" اليوم وهم بهذا المعنى يقعون إن قصدوا ذلك أم لم يقصدوه تحت مظلة "التريّف" السياسي للسلطة في العراق. إن هذا الخطر هو ما يجب أن تنتبه إليه الطبقة

السياسيّة بكل فئاتها المؤمنة بالتجربة السياسية الديمقراطية، بالمجتمع العصري وبالدولة المدنيّة المنشودة التي فيها وحدها يقع خلاص العراق.. وما مشكلة "الاحتلال" وخروج الأميركان وبقائهم إلاّ شكل ثانوي لا يرقى إلى خطورة هذا الانشطار الاجتماعي السياسي الذي يكمن في أعمق نقطة من الكيان العراقي..

إن أشكال الصراع السياسيّة التي تتوزع أمامها الأحزاب الحاكمة اليوم والتي تنشقّ عنها قوى المعارضة بما تعلنهُ طوائفٌ سنية وشيعية أو عرقيّة كردية وتركمانية أو وطنيّة، كلها مُجتمعةً تواجهُ سؤالاً محورياً يطالبها بموقف عميق وجذري وهو الموقف من المجتمع المديني العصري وبناء أسسه داخل الذات الجمعية العراقية وصيانة رموزه ومنجزاته في ماضي العراق وبناء الدولة العصريّة اليوم إنطلاقاً من مفاهيم الفرد والجماعة على أساس المواطنة وحدودها وواجباتها كما في كل دولة عصريّة بعيداً عن قواعد وأسس البناء العشائري والقبلي والديني الطائفي بالضرورة، لأننا إذا أردنا الخروج من الطائفي سيتحيّنُ علينا تحديد المفهوم الديني وحصره في أداءٍ ودورٍ لا يرجَحُ على كفّة إدارة الدولة ومؤسساتها..

أقول هذا طبعاً ونحن أمام ظاهرة جديدة في الصراع والموقف العسكري من الإرهاب والعنف اليوم وهي ما يُعرفُ بـ"الصحوة" العشائرية التي لجأت إليها الدولة مؤخراً كحل لم تجد سواهُ في مواجهة

"القاعدة" بعد أن فشلت كل أساليب صدّها عسكرياً من قبل الجيش الوطني وحتى بمساعدة حلفاء هذا الجيش؛ القوات الأميركيّة.

بالطبع إن اللجوء إلى "الصحوة العشائرية" هو عمل يمضي بالاتجاه المعاكس لما ندعو إليه ولكنني كشاهد على مجريات العملية السياسية العراقية أعترف بأنه لحد اليوم لم تستطع لا الدولة ولا المؤسسة العسكرية الوطنية ولا القوات المحتلة مواجهة هذا الخطر الذي ينذر باجتثاث العراق من خارطة العالم... وهذا هو الخطر الأدهى..

إن خطراً كالقاعدة ما بعده خطر، وأن مجتمعاً كالعراق عندما يقع تحت هيمنة قوى كـ"القاعدة" فإن ذلك يعني ليس فقط إنهيار كل شيء في كيان دولة كالعراق بل في المنطقة كلها وبالتالي فإن تداعياتُهُ تَتَهدَّدُ العالمَ أجمع...

ولهذا، فإننا أمام مثل هذه الكارثة الماحقة يمكن أن نفهم – هذا اللجوء الاضطراري – إلى التحالف مع قوى العشائر بكل ما يتضمنه من تراجع لقيم المدنيّة والدولة العصريّة. وعلى أي حال فقد أجاب العراقيون على هذا السؤال في إختيار "الصحوة" العشائرية وتفضيلها على القاعدة.

نفس المبدأ مع الدين، لأنه هو الآخر، صار ملجأً للملايين من العراقيين طيلة عقود طويلة من السنين الذين لم تعد لديهم إلاّ حاضنة واحدة هي الإيمان، وحدَها جمعت الملايين وأعطتهم القوّة وحتى مبرر

البقاء بعد أن سقطت مثل أوراق الخريف كل شعارات الأحزاب الوطنية سواءً أكانت الأمميّة اليسارية أو القومية اليمينيّة.

أمام هذا "التطور" الذي يجب أن نستبدل تسميته ونقول "التدهور" وجد العراق نفسه في خندق الدفاع عن الوجود والبقاء ولكنني مؤمن بأن إنعطافةً حضاريةً ستتحققُ في مرحلة ليست بالبعيدة إيماناً بقوى هذا الشعب الكامنة والتي هي رديف الابداع والبناء مُستندةً إلى أعماق الذاكرة الجمعيّة لشعب عريق قديم – كما يقول الزعيم الفرنسي ديغول في وصفه للشعوب – هذا الشعب الذي راكم من تجارب الصراع والنضال، الشعب الذي قامتْ وماتتْ في حضنه إمبراطوريات، وعرف أنواع الويلات والاندحارات، هذا الشعب سيجد اللحظة التأريخية التي لا أظنها بعيدة جداً، بل ربما على المدى المتوسط والبعيد نسبيّاً سيحين موعدُها أي أننا مباشرة بعد التخلص من المشكلة الأمنيّة التي بدأت تندحر هذه الأيام، سيكون هناك متسع أمام العراقي للعودة وطرح السؤال الجذري في مشروعه الحضاري الذي لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال التنازل عنه. هذا السؤال الذي يؤسس له اليوم بأكبر التضحيات، سؤال الدولة العصريّة التي تنهض بحاضر العراق امتداداً من ماضيه وعبوراً بأعمق التجارب السياسيّة والتراكمات الهائلة من المعارف والثروات الماديّة والبشرية التي لا بد أن تجد الصيغة السياسية

المثلى لها.. ولا أرى لها صُورةً غير الديمقراطية التعدديّة والدولة المدينيّة العلمانية.

إن العراقي وارث الحضارات، سليل الرافدين الذين ضمّا بين شواطئهما أهم أشكال التجمعات العصرية والحضارية في هذه المنطقة منذ فجر التأريخ؛ أقول أن هذا العراقي لم يندحر، بل العكس تماماً، إنه وفي خضم هذه التساؤلات التي يتقرر بموجبها وجوده ودوره منطلقاً من هذه التجربة السياسيّة الأعمق والأخطر ليس فقط في حياة الشعب العراقي بل وفي حياة المنطقة بأجمعها، أقول أنه ليس أمراً إعتباطيّاً أن يحدث هذا في العراق وليس في مكان آخر.. ليست الثروة النفطية سبباً كافياً ولا وجود الدكتاتور ولا الموقع الجغرافي الاستراتيجي، فكل هذه الأسباب متوفرة في دول الجوار والمنطقة بشكل عام.. ولكن عنصراً أساسياً يكمن في أن العراق كان منذ نشوء التأريخ منطقة بناء واعتمال وصراع وتجسيد لفلسفات ومبادئ وسياسات قامت إثرها دول وامبراطوريات وحروب دون توقف..

• • •

في هذا الإطار يمكننا وضع الكثير من رموز الصراع والحرب الدائرة داخل العراق اليوم باعتبارها هجمة إنقضاضية على "العاصمة" التي

يمكن أن تعيد صياغة الدولة العراقية المعاصرة كولادة جديدة، قيصريّة هذه المرّة وحيث أن الوليد نفسه مستهدف داخلياً وخارجيّاً.

وفيما يتعلق بالهجمة الداخلية فليست فقط تلك التي تأخذ شكلاً مسلحاً ناسفاً لكل ما هو عراقي دون إستثناء كما نرى في المفخخات في الأسواق والجوامع والمدارس والجامعات، بل هي هجمة أعمق وأوسع تعمل على النيل من مقومات الكيان العراقي بكامله، وما إنفجار شكلها الطائفي إلاّ مظهراً من مظاهر ذلك.

تتواصل اليوم وبمختلف الأشكال هجمة الريف العنيفة هذه على الكيان العراقي وقد أخذت سمات أخرى تتبلور داخليّاً في ظهور ممارسات لم يعرفها العراقيون من قبل، أو على الأقل بهذه الدرجة من الصنعة والتطور، كما يحصل داخل "مدينة الصدر" على سبيل المثال من بناء لـ كيان إجتماعي ديني هامشيّ منفصل ومتميز حتى عن الضواحي والمدن العراقية التي غالبيّتها من الشيعة كما هو الحال في ضواحي مثل مدينة الحرية والكاظميّة، أي أن حالة من التجذر والراديكاليّة لمزيج من مفاهيم عشائرية ودينيّة في مصهر ضخم يسمّى اليوم "مدينة الصدر" ويقع شرق بغداد متاخماً لحدود الرصافة بحيث أن أغلب سكانه يتواجدون داخل العاصمة بشكل طبيعي، وفيه كل مظاهر الحياة المناقضة والداحضة لحياة العاصمة وأشهر مثل على ذلك ما عُرف هذه الأيام

بتواجد سوق شعبي بمضامين ودلالات خطيرة لم يكن يعرفها العراق من قبل وربما لا تعرفها العواصم العربيّة التي عُرف بعضها بأسواق مُعلنة للسلاح كما في اليمن وأخرى خفيّة للحشيش كما في مصر ولكن لم نعرف سوقاً للوثائق والشهادات الجامعيّة وللجنسيات وكل أنواع الأوراق الرسميّة التي يحتاجها المواطنون في عملهم وأشغالهم فأنت تستطيع أن تحصل على شهادة دكتوراه بالذرّة من أهم جامعات العالم، وثيقة جديّة حيث التقليد ليس إعتباطيّاً وحيث أن الكثير ممن استخدموا هذه الشهادات استطاعوا أن يحققوا مآربهم وينطلون على المؤسسات الحكومية وسواها بحيث اكتشفت الحكومة العراقية مؤخراً عدداً من المسؤولين الكبار قدّموا وثائقهم صادرة عن "سوق مريدي" ليحتلوا بها مواقع في القيادة والوظائف الكبرى.

هذا السوق لا يمكن أن يكون مجرد مكان لتزييف الأوراق كما يحصل في تزييف العملة، لأن العملة يمكن صرفها ولها تأثير في الاقتصاد محدود بحكم حجم المبالغ المزوّرة، ولكنهم عبر "سوق مريدي" هذا يدكّون أعمدة الجامعات ويدوسون على مؤسسات الدولة بأعلى حرماتها ويسخرون من العالم أجمع ومن أهالي المدينة العاصمة ومثقفيها ومتعلميها، محققين بذلك ليس الثروة المادّية بل الهدف الأعمق من وجود هذا التجمع السكاني الخطير في العاصمة العراقية وهو تدمير البنى

التحتية والأسس التي تقوم عليها كل حاضرة عراقية.

هذا هو ما أسميه الخطر الكبير في ترييف العاصمة وإعادتها قروناً إلى الوراء.

لا يمكنني فصل مشاهد الإجتياح الريفي هذه لبغداد منذ عقود عما يجري من إرهاب وإحراق وتدمير للبنى التحتية والثقافية لهذا البلد. وبالتالي ألا يشكّل أيضاً صعود الاسلام المتفجر هذا ومفهوم التطرف فيه شكلاً من أشكال التريّف الخفيّة المقنّعة بمعاني الإيمان والاسلام والتزهّد؟

أليسَ الإسلامُ في فلسفته العميقة ريفيّاً وليس مدينيّاً؟ وإذا ما نظرنا إلى الفكر الديني في جذره، أليس هو الايمان بأن السعادة القصوى والخلاص ليست على هذه الأرض الفانية وأن الخلود والنعيم في الجنان والفراديس بعد الموت؟ أليست الحياة بالمفهوم الديني الايماني العميق هي جسرٌ فقط للعبور وصراطٌ يجب أن يظل مستقيماً لكي نَدرُكَ الجنان.. وكيف يظل هذا الصراط مستقيماً في حياة مدينيّةٍ مُترفةٍ يتنازعها حبُّ البقاء والشهوات والأهواء كما يقال؟ وكلُّها ملعونة بالمفهوم الديني!؟ وفي مقابل ذلك أليس الريف بشكله المُتَقَشِّف وبجماله "العذري" إن صح التعبير وبقيمه المحافظة على المفاهيم الدينيّة والإجتماعية الموروثة هو الشكل الأقرب إلى مفهوم الدين.. أليس الريف بهذا المعنى هو شكل

التجسد الدنيوي للمثل الاسلاميّة في التجمعات الانسانية والحياتيّة؟

ألم يرتبط إزدهار بغداد كعاصمة مدينيّة في العصر العباسي بتفشّي الفساد وتحلل الأخلاق وضعف الإيمان كما يتردد دائماً على ألسن الدارسين الأكاديميين وكذلك العديد من كتب التأريخ؟. ألم تتحول بغداد العباسيّة التي هي رمز المدنيّة الإسلاميّة إلى مدينة "ألف ليلة وليلة" بشكل أو بآخر؟ وقد ارتبط مفهوم "الانحطاط" في ألف ليلة وليلة بالعاصمة الأولى في العالم قائدة الامبراطورية الإسلامية لقرون طويلة؟

وهل هذه ظاهرة طبيعيّة شأنها في ذلك شأن المدن الكبرى، عواصم العالم قديمه وحديثه؟

واليوم ألا نشهد أن ظاهرة الحنين الدينيّة بما يعرف بـ"العودة إلى الأصول" ترجع بالأحرى إلى المرحلة الراشديّة من الإسلام وليس إلى بغداد ولا إلى دمشق وهما العاصمتان العربيّتان الوحيدتان اللتان تمثلان الدولتين الاسلاميّتين المؤسستين للامبراطورية الإسلامية "الدولة الأموية" و"الدولة العباسيّة"؟

أليست هذه ظاهرة كافية لتجيب على أسئلتنا في أن المرجع والنموذج الديني الأصيل موجود في الريف وليس في المدينة؟

على أي حال إن من يقرأ "الرسالة البغدادية" لأبي حيان التوحيدي والتي كتبها بعد زيارة إلى فارس ليقارن في تلك الأيام الحاضرة البغدادية

بما وجدهُ هناك من طراز بدائي للعيش، أقول أن هذه الرسالة تكشف إلى أي مدى كانت بغداد حاضرة مزدهرة لا مثيل لها في يومنا هذا وهي بذلك يمكن – حسب التوحيدي – إعتبارها العاصمة الأولى للعالم يومذاك بكل ما ينطوي عليه أسلوب حياتها من فن ورقي وتعقيد وترف وجمال وانحطاط.

وكان ذلك في بغداد تحت حكم "أمير المؤمنين" الخليفة العباسي. بالطبع كانت هناك معارضة دينيّة سياسيّة ممثلة بموقف الشيعة ولكن هذا لا يمنع من أنها ظلّت عاصمة الخلافة الاسلامية طيلة حياة هذه الامبراطورية التي نشرت الإسلام في جميع أنحاء العالم، وإليها يعود الفخر بالانتصار للاسلام ورفع رايته عبر القارّات. أليست في هذا التأريخ مفارقة وتناقضٌ حاد نعيشهُ اليوم كمسلمين نفخر بأمجاد الامبراطورية الاسلامية التي عاصمتها بغدادُ ألف ليلة وليلة "الفاسدة" بالمفهوم "الطهريّ" الذي يشيع هذه الأيام؟

إنه السؤال الجوهري الذي يتعسّر علينا إيجاد جواب شافٍ له، السؤال البغدادي بالمعنى التأريخيّ والحضاري لمدينة بغداد: كيف يمكن الجمع بين تراث الخلافة الإسلاميّة وتراث ألف ليلة وليلة؟

وحينما نسمع كلمة "بغدادي"، بماذا يتبادر إلى الذهن أوّل الأمر؟ هل نفكر بعاصمة الامبراطوريّة؟ أم بليالي ألف ليلة وليلة وسراديب أبي

نؤاس؟ وهل الجمع بينهما أمر طبيعي، بل ألا يمكن إعتبارُه أحد صور عبقريّة هذه المدينة؟ ألم يكتب أمير المؤمنين الخليفة إبن المعتز (الذي حكم ليلة واحدة) كتاباً في وصف الخمر ومحاسنها "كتاب التماثيل" وهو كتاب غير معروف في المكتبة العربيّة وقد نشرته المكتبة الشرقية في باريس باللغتين العربية والفرنسية. (وتلك مفارقةٌ كبيرة)!

إن صور التناقض الحاد في مشاهد ورموز بغداد التأريخيّة إن دلّ على شيء من وجهة نظري فإنما يدلُّ على عبقرية هذه المدينة وقدرتها أن تقدم النموذج كيف تكون مدينة واحدة عاصمة للدنيا وللآخرة في آن... عاصمة المقولة الشهيرة للإمام علي بن أبي طالب **"إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً"**

ثم لنعُد إلى اللغة واشتقاقاتها فإن فيها بعض الإضاءات؛ من أين جاءت كلمة "الدنيا" في اللغة العربية؟ أليست لأنها هي الدانيةُ الدنيئة الواطئة وبهذا تكون المعلونة؟

ألا يمكننا بعد كل هذا القول بأن صعود الإسلام الذي جاء مرادفاً لهيمنة العساكر وطول إقامتها في السلطة في العراق قد أسهما كلاهما كُلٌّ بطريقته في تريييف العراق وتحويل مدنه إلى أرياف كبيرة..

ما زال البغداديون إلى اليوم يتحدثون بتندُّر وسخرية أحياناً كثيرة عن سكان المدن الصغيرة والأرياف في تكريت وغرب العراق الذين

نزحوا إلى بغداد باعتبارهم يجهلون أبسط أشكال الحياة المدنيّة وكان هؤلاء أنفسهم طيلة فترة النظام الديكتاتوري يقيمون القصور والمنتجعات ولا يعرفون كيف يعيشون فيها؟

أجل لم يُريّفْ بغداد فقط النظام العسكري الصدّامي وجيشه من أبناء المدن والأرياف التي ينتمي إليها والذين كانوا يشكّلون العصب الرئيسي في حمايته وأعدادهم بمئات الآلاف.. بل رَيَّفَ بغداد صعود الإسلام بشكله المسطح والمتفجر الانتقامي خاصة. أنه يشترك عمقياً ولأسباب مختلفة في نقطة واحدة مع النظام الذي كان عدوّاً لدوداً له، هذه النقطة هي التي سقطت بغداد تحت نارها وهولها إنه الريف يجتاح العاصمة مدجّجاً بالسلطتين الدينية والدنيوية.

بالفعل لم تعدْ بغدادُ عاصمة، لم تعد مدينة لا يكفي غداً – إذا ما نجحت مشاريع إعادة الإعمار كما يقال – أن يُعاد ترميم المباني والشوارع، لا يكفي هذا المظهر لإعادة بغداد إلى روحها ودورها وماضيها. لا بدّ من عمل عميق تقودهُ كل القوى المؤمنة ببقاء العراق وبدوره وعمقه الحضاري، عمل تأسيسي يهدف إلى تركيز المفاهيم المدنيّة الحضاريّة في الجيل الجديد من أجل بناء مجتمع عراقي متحضر بكل معنى الكلمة. وليس في هذا موقف عدائي من الإيمان ومن مفهوم الدين بروحه العالية تقودُه قوى الخير والمحبة. لكن هناك ضرورة لفصل الحضارة المدنيّة بكل

قيمها، قيم العصر التي نشترك فيها مع الآخر، في عصر العولمة الذي لا مفر منه والذي لا يمكن أن نحيا خارجاً عنه، أقول لا بد من إيجاد مخرج لفصل هذه المفاهيم العصرية عن مفاهيم البداوة والريف التي تعيدنا قروناً إلى الوراء.. وإذا لم نتمكن من إحداث هذا الفصل فسيمضي الدين والريف في بلدنا تحدّياً لكل بناء حضاري يجمعُنا مع شعوب الأرض. إنني لا أقول هنا بفصل الدين عن الدولة بالطريقة التي حدثت بين سلطة الكنيسة والسلطة السياسيّة في أوربا فتلك تجربة هامة ولكنها مختلفة نوعاً ما إختلاف فلسفة المسيحية عن الإسلام.. وبعيداً عن الغور في تفاصيل هذا السؤال المعقد الذي سيتطلب دراسات ومجلدات خاصة به، أريد أن أؤكد أن فصل الريف عن المدينة هو جزء أساسي من هذا الفصل بين الدين والدولة وإذا استطعنا أن نحقق ذلك في مرحلة أولى سنكون قد أنجزنا خطوة تأسيسيّة رائدة في الإسلام. إننا أمام "إستحالة" التوصل إلى فصل الدين عن الدولة في المجتمع العربي الاسلامي المعاصر وهذا واقع يجب أن نقرَّ به لذا لا بد لنا من العمل باتجاه مرحلة تمهيديّة إذا نجحنا فيها، وهذا ممكن، وهي بناء المجتمع المديني العصري الذي سيكون مدخلاً حقيقيّاً لمسيرة ستطول ولكن إذا ما نجحنا في البدء بها والانطلاق بخطىً ولو متواضعة وثيدة سنصل تلقائيّاً إلى منطقة الفصل هذه دون مواجهة وصدامات وبمواكبة تطور المجتمع نفسه. إن علينا إعادة هيبة المدينة التي مسخَها الريفُ فارضاً عليها قيمَهُ وعاداتِه وخطابه، وهذا هو

السؤال العملي اليوم والذي تُقدّمُ جميع الحواضر العربيّة نماذج متباينة في الردِّ عليه ولكنها تشترك في الكثير من الملامح في حياتها اليوميّة في مواجهته.

وفي بغداد نموذج دامٍ لهذه الحياةِ لا يمكن أن نقف أمامَهُ مكتوفي الأيدي ولا أن نتذرع بأن مسألة فصل الدين عن الدولة في الإسلام هي السؤال المحوري والمستحيل في آن لكي لا نفعل شيئاً...

• • •

ما زلنا نتقدم في شارع الرشيد، صرنا على مقربة من بغداد العباسيّة كما تسمى عند المختصين والدارسين والمستشرقين ولا أحد يتفوه بمثل هذه الكلمات بين العراقيين اليوم لم يبق من بغداد العبّاسية شيء من هذا سوى بعض الرموز والجدران هنا وهناك ثم لماذا؟ لم يحدث أن قام نظام أو حزب أو حركة إجتماعية بالالتفات إلى هذا التواصل بين جسد الامبراطورية العباسية وحاضر بغداد إنطلاقاً من بعض الآثار سوى بعض مبادرات لا تكاد تذكر قام بها النظام السابق وكانت سطحيّة وغوغائية كما فعل في بناء ما يسمّى بالقصر العباسي الذي أفرغه من كل محتواه وحوّله إلى شقة إعلامية لسلطته ولكن الشيء الوحيد الذي ظل من بغداد العباسيّة والذي يشهد لها بالعمارة والماضي الفكري العريق هو مبنى

"جامعة المستنصرية" الذي يقع بموازاة شارع الرشيد على النهر. إنه المكان الوحيد الذي يحمل بصمات بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية الكبرى.. ما زالت "الجامعة المستنصريّة" قائمةً بجدرانها المزخرفة بالخط العربي وبنافوراتها التي جفت منذ قرون في حين لم تجفّ نافورات الدم من حولها منذ قرون أيضاً.

ما زالت قاعات الدرس وأطياف العلماء الأوائل والدارسين القادمين إليها من كل الأصقاع تتوافد أشباحاً وظلالاً وأسراراً تحيط بالمكان وكأنه روح يرفض أن يغادر جسده..

بالطبع وكإمتداد للجامعة هذه ندخل سوق الورّاقين العباسي القديم المسمى اليوم بـ "سوق السراي" وهذه التسمية أصلها يعود إلى الحكم العثماني الذي أقام "السراي" أي مقر الحكم، أو الثكنة – مرادفات في الدولة العثمانية – في آخر السوق على النهر والذي يسمى اليوم بـ "مبنى القشلة" وهو السراي القديم الذي أخذ السوق العباسي اسمه الجديد منه.

مبنى "القشلة" هذا اليوم الذي يُعدُّ من أهم رموز العمارة العثمانية والذي بُني كما يقول المؤرخون من بقايا سور بغداد القديم، فأصبح مقر الحكومة والثكنة العسكرية وقد شيّد أيام الوالي نامق باشا الكبير عام 1860 وأكمله مدحت باشا.بعد أن بنى في ساحته برجاً نَصَّبَ عليه الساعة الشهيرة لإيقاظ الجنود في أوقات التدريب العسكري المبكر..

يبلغ ارتفاع البرج ثلاثين متراً ويحتوي في داخله على سلم حلزوني بحوالي مائة درجة في نهايته أحواض فيها مكائن للساعات وله وجهان وجه فيه ساعة أرقامُها عربية وآخر فيه ساعة أرقامُها فرنجيّة – كما يقال – منذ ذلك الحين كان العثمانيون ينظرون بعينين شرقاً وغرباً..

ظل هذا المبنى يعمل طيلة فترة الاستعمار الانكليزي وكان مركزاً حيوياً من مراكز الحياة الوظيفية في العاصمة..

أذكر أنني كنت في أحد مكاتب وزارة الثقافة العراقية في أول زيارة لي لبغداد بعد سقوط النظام حين جاءنا خبرٌ مفاده أن بوّابة القشلة وهي بوابة ضخمة جداً تزن بضعة أطنان قد سُرقت من مكانها في وضح النهار... ثم عُرضت للبيع في أحد أسواق بغداد.. لا أعرف إذا كانت وزارة الثقافة قد اشترت هذه البوابة من لصوصها...

إن بوابة القشلة هذه كانت تطل على "السوق العباسيّ" الذي كما ذكرت يُعرف بـ"سوق السراي"

أقول السوق العباسي مكاناً وروحاً وليس حجراً أو جسماً أو شكلاً معمارياً لأن الدكاكين فيه لا تتجاوز في أعمارِها بداية القرن المنصرم ولأنه لم يبق فيه أي أثر مخطوط أو محفور على حجر منذ أيام العبّاسيين ولكنه المكان والسوق والورق... نفسهُ، والحياة الثقافيّة هي.. هي، ما زال المكان "مقدّساً" لدى أهل الكلمة وعشّاق القراءة، ما زالت هذه السوق

هي الوحيدة للكتب والقرطاسيّة في بغداد والتي في نهايتها يبدأ شارع المتنبي المعروف، الذي يشكل الرئة الثقافية لبغداد. لا أعرف في أي مدينة في العالم بوجود سوق كامل مخصص للورق والكتاب.. إنها قرية للكتاب والورق والقلم.. إنه إبتكار بغدادي، عبّاسي ما زلنا نتوارثه ونحبّه ويعد من أجمل مرافق العاصمة وحاراتها..

نعم هو القوسُ الفكريّ الابداعي لبغداد إبتداءً من الجامعة المستنصرية مروراً بسوق السراي "الورّاقين" حتى شارع المتنبي، هذا المكان أصر على تسميته القديمة خاصة وأن طرفه الأخير المعروف باسم المتنبّي يذكرني بأحمد بن الحسين الفتى الصغير الذي لم يكن يتجاوز العاشرة عندما كان يعمل في أحد دكاكين الورّاقين في الشارع الذي صار يحمل اسمه اليوم، وكان – حسب المؤرخين – يعمل بدون أجر سوى أن يستطيع القراءة، ذلك هو الثمن الذي يكسبه من عمله طوال اليوم.. وعندما في يوم ما طلب أحمد الطفل أن يأخذ معه إلى داره أحد الدواوين الشعريّة التي نجهل اسم صاحبها، جوبه برفض صاحب المكتبة الذي أخبره بأنه يستطيع البقاء في دكانه فترة أطول للاطلاع عليه..

لكنّ هذا الورّاق، على ما يبدو، عطف على أحمد الطفل، ولم يكن أصبح المتنبّي بعد، عندما وجده منكباً طيلة ساعات على هذا الكتاب فقال له: خذه معك إن شئت إلاّ أن الطفل المعجزة رفض ذلك وقال له:

"لا حاجةَ لي به بعد" فتعجّب الورّاق وسأله: لماذا؟ أجابه الطفل المعجزة: لقد حفظته.. فلم يصدّق ذلك الورّاق حتى أسمعه الديوان بيتاً.. بيتاً.

كيف لا يسمّى هذا الشارع باسم المتنبّي؟

ولكن ماذا حدث لشارع المتنبّي؟ ليس جديداً ما سأحدّثكم عنه فالكل رأى بعينيه على جميع الشاشات كيف تناثرت الكتب والأشلاء في هواء الشارع واحترقت معاً العيون والكلمات والأيدي والصفحات، الشعرُ والأرواح كلها تصاعدت دخاناً إمتزج وتعالى في سماء المكان.

إقتربت من مقهى الحيدرخانه التي وُضِعَتْ جنبها السيّارة المفخخة، وقفتُ هكذا تحية وتحدّياً في الزاوية الحيّة – كما يقال – والتي أصبحت الزاوية الميّتة بين مدخل السوق وشارع المتنبي الذي يلتقي معه. وقفتُ أمام المقهى التي يجلس فيها قرّاء الكتب مع كتّابها في هذه "السرّة" لجسد بغداد الثقافي هنا عُشتُ لحظةَ حداد لم أعرف له مثيلاً في حياتي.. فلم أقف حداداً لشخص معين قريب أو بعيد، كانت لحظة حداد وجودية لكياني كلّه... تذكّرت بيت صديقي الراحل الشاعر الفرنسي الكبير يوجين غيّوفك الذي يقول: **"لماذا نقف دقيقة حداد أمام جدث الميت هل جرّبنا أن نتمدّدَ جنبه ولو دقيقة حداد"** أجل كان يجب أن نتمدد جنب هذه الأجساد المتناثرة ليكون لحدادنا معنى.

ترى مَنْ عدوُّ الكتاب؟ ومن لا يُطيق مرأى العراقيّ وهو يقرأ؟ ومن

يحتقر الثقافة والمعرفة حدّ الانتقام الجسدي من أهل الكتب كما من جسد الكتاب نفسه؟ أيُّ وحشٍ وأيّ غول وأيّ بربري لم يُسمِّهِ المؤرخون ولم تعرفه لا الحواضر ولا البوادي؟

من أين جاء هذا القاتل الغريب الأطوار، هذا التنين الغيهبي الذي لا يُطيق أن يسمع اسم المتنبّي، وهل هو سليلُ فكرٍ دينيٍّ أم مدّ وبائي.. لا بل هي الأوبئةُ الحديثةُ التي تسيرُ قدمين. إنهم الأعداءُ الحقيقيون للحياة، إنهم الصورة الأخرى المشرئبّة والملثمةُ للعدم.

ثم أليس الفكر والحضارة والتمدّن والمدنيّة معاً في حركة متناسقة تجري مثل نهر واحد؟ هل يمكن أن يكون هذا العدو مدينيّاً؟ هل يمكن أن يحمل هو الآخر فكراً أيّاً كان؟ هل له علاقة ما بالكتاب.. أي كتاب؟ لا أعتقد ذلك ولا يمكن أن يكون إلاّ خارجاً عن كل هذا، قادماً من أهوال وغياهب البربرية التي لم نعرف بعد أن نسمّيها.

أعرف شارع المتنبي وسوق الورّاقين "السراي" منذ طفولتي.. لقد كانت لي فيه أجمل النزهات برفقة أصدقاء الطفولة وقد كنّا شغوفين منذ تلك السنوات بحب الأدب والفن والعلاقة مع الورق والكلمة والفنون... ولهذا كانت هذه الحارة ومقاهيها أجمل وأمتع أماكن العاصمة بالنسبة لنا.. كنت فارقت هذا المكان منذ أواخر الستينات لأعود إليه في مطلع القرن الجديد.. أربعة عقود لم أكن أنسى قط وجوه باعة الكتب،

الحوارَ معهم، علاقتَهم بهذه الكائنات الحيّة التي يعيشون معها، يقرأونها قبل أن يبيعونَها فهم يقدمون لك فكرة ما عن الكتاب، صورة عن مؤلفه وعن أهميته ككتاب وكطبعةٍ حينما تكون نادرة أو نافدة، وقبل أن يقدموا لك الكتاب الذي تقتنيه، يمسحون الغبار عنه برقة وحنان، وكأنهم يودّعون عزيزاً.

لا يوجد شارع يشبهُه في العالم قط.. ليس هو شارع مكتبات ولا هو مركز ثقافي في الهواء الطلق كما يمكن أن يبدو ولا هو تظاهرة ثقافية مبرمجة وهادفة ولا هو مزاد علني للمؤلفات والكتب ولا هو سوق فقط لتداول بضاعة الكتاب.. إن شارع المتنبي يحمل كل هذه الدلالات وأكثر لأنه إمتدادٌ جسدي روحيّ لأسطورة بغداد العباسيّة في أروع أشكال تجسّدها.. أي في الكلمة..

ألا تُجمِعُ كل العرب – ولا تُجمعُ العرب على شيء – على أن العراق هو سوق الاستهلاك الأعظم للكتاب.. ألم يُقِرْ بذلك كلُ الناشرين الذين أَغلقَ العديدُ منهم دورَهم بعد أن سُدّت أبواب العراق أثناء الحصار الجائر الذي دام ثلاثة عشر عاماً؟

إذن هل يكمن السبب وراء هذه العلاقة في سرّ الغذاء الروحي والفكري لأبناء هذا الوطن الذين يجدون في الكتاب الخبز الثاني للبقاء.

وأين يُباع هذا الخبز وأيّة حارة يلتقي فيها أهله ومحبّوه؟؟

نحن في الشارع الذي يشكل الملمح العبّاسي الأكثر ضوءاً والأطول إمتداداً والذي يصبُغُ الهويّةَ العراقية بظلاله وسُحنتِه ودلالاته..

أجل إنه سوق الورّاقين ولكن هل رأيتم جدران المباني فيه وزجاج المكتبات، وهل سمعتم بحريق أكبر مكتبة فيه "مكتبة المثنى" التي كان محمد قاسم الرجب صاحبها شخصيّة موسوعيّة عالماً بالتأريخ والموسيقى، وقد إحتوت مكتبتُهُ مئات الآلاف من الكتب. أحرقت قبل تفجير الشارع بسنوات طويلة كاستمرار لاستهداف هذه الرئة التي تتنفس أنقى هواء.. لا بد أن يظل الدخان الأسود هو هواء المكان ولهذا لا بد من حرق كل شيء فيه.

إن استهداف شارع المتنبي قديم وغير مرتبط بأحداث العراق اليوم ولكن اليوم أخذت كل أشكال الحقد والكراهيّة ضد هذا الشعب وضد الضوء المنبثق من روحه المضيئة عبر التأريخ، تجد مبررات وتفتعل أقنعة سياسية تارة ودينية أخرى لتقتل فقط لتقتل ولتحرق فقط من أجل أن تمحوَكُلَّ مظاهر العبقرية والابداع في هذا الوطن.

• • •

في الساحة المؤدية إلى الشارع مباشرة أمام الجسر الذي يحمل اسم "الشهداء" هؤلاءِ الذين أصبحوا اليوم لوحدهم شعباً من أبناء المجتمع

العراقي وهم الفئة التي تتوزع على كل الطوائف والأديان والأعراق والطبقات إن المتأمل لـ "شهداء العراق على الأقل في النصف الأخير من القرن العشرين يدرك على الفور إنهم يمثلون الشعب العراقي بكل أطيافِهِ.. إنهم صورة العراق تنوعاً وتنوّراً وتطلّعاً نحو الغد المشرق، إنهم العراق المدفون الدفين وما زال عددهم يتضاعف بشكل جنوني وكأن للعراقيين حنين جارف لما وراء الحياة، مدّ أرضي يقذف بالآلاف خارج الكوكب. أذرع أخطبوطية عدمية تقود هذه الجموع من أهل العراق نحو الهاوية.. "الشهداء" لم تعد هذه الكلمة تعني ما تعنيه لدى الشعوب الأخرى.. الشهداء اليوم في العراق هم الأصدقاء الآن والأهل الذين نعود إليهم بعد ساعة والرجال الذين رأيناهم قبل ثوانٍ وحيّونا بالكلمة تارة ولوّحوا لنا بالأذرع أخرى.. الشهداء هم نحن المؤجلين أفلتنا فقط لقدر لا نعرفه ولاختيار لم نقم به، هؤلاء الشهداء ينامون الآن في صدورنا نتنفس معاً ونرى معاً بأعينهم وجهَ الهول الذي لم يشهده أحد من قبل.

الشهداء، لا تقولوا ذلك.. أي كلمة ربما هي أصلح، قولوا الأصدقاء، قولوا الرجال، وقولوا الأطفال وقولوا النساء. الفرق الوحيد هو في الوقت، في دقائق قبل وساعات بعد أو أيام؛ الشهادةُ فاصلةٌ لا أكثرَ، فرقٌ زمني، مؤشرُ عقربِ ساعةٍ كونيّ خفي نراه في اللحظة التي يدركنا فيها ولا ندري أين ومتى؟ شهداءٌ.. أطفال.. معلمون..

حلاّقون.. باعة سمك في "أبو نؤاس   أجل كلُّ هؤلاء، فالأطفال ينابيع ملأى بالغد وهذا الغد ملعون لأنه نافذة على الدنيا الدنيئة التي لا يريدونها.. ولهذا ينسفونهم حيثُ يلعبون وحيث يتعلمون وحيث يرقدون.. حتى أنهم أحياناً يستعملونهم مثل عبوات ناسفة وأخرى يضعونهم في سيارات للتمويه.. لكي لا يشك العابرون والشرطة بأن ثمة لغم في سيّارة يترك صاحبُها في داخلها طفلاً.. أجل هكذا يبتكرون أشكالاً من الحقد الانساني والتنكر للبشريّة ما لا يمكن أن يقدمه التأريخ الانساني مُجتمعاً ولمرّة واحدة.. بالطبع إنهم يكرهون هذه الأزهار التي تنبض بالدم فيحرقون حقولها ويدوسون أريجها بأقدامهم ونيرانهم. وسوى الأطفال بين الشهداء تجد المعلمين أجل فالمعلمون بلا شك.. هم الهدف الجاهز المعدّ الذي لا يحتاج لا إلى تبرير ولا إلى إقناع، إنهم "مضلّلوا" الجيل الذين يريدون لهُ أن يذهب فوراً إلى الجنائن بعيداً عن هذه الحياة.. هؤلاء المعلمين يظلّون من وجهة نظرهم يردّدون الفكر الزائف وينشرون التعاليم الغربيّة الحاقدة.. وفوق كل هذا لماذا نُعلّم وأيّة أبجدية أروع من صوت الملائكة وهي تقرأ فضائل وفضائح الأحياء بعد الموت؟ أي "قِسْم" للدرس أكثر رهبة وعلماً من القبر الذي تحضر فيه الملائكة تقرأ وتشهد وتحكم وتُؤدي وتربي؟

والمعلمون ماذا نفعل بهم اليوم ولماذا الأبجديّة؟ أيّة خرافة؟ نحن

نحفظ كل شيء على الغيب تلقيناً بعد أن نَعصُبَ العينين.. إن هذا الدماغ، هذا الجهاز يمكن اختراقُه، غسلُه، تحويلُه إلى بارودة بعد أن نغمض العينين عن كل ضوء وعن كل أبجديّة.. أجل إنها الصيغة المثلى للتعلم والقفز مباشرة من عذاب الدنيا إلى جنائن الغيب حيث المعرفة الكليّة ولا حاجة لأي درس.

المعلم والمهندسُ ماذا يبنون؟ أي صرح يرقى للصروح التي ينتظرونها بفارغ الدم في العروق. أيّة طرقات ولماذا نصل؟ وأين نصل؟ وأيّ جسورٍ وأيّ عبور أعظم من عبور الحياة إلى ما وراء الحياة.

لذلك يجب أن يموت كل هؤلاء لكي يتحركَ المجتمع الجديد بروح عارٍ عن كل الأسماء والصفات والمعرفة، روح متشح بالسواد والعدم قادمٍ عائدٍ منه.

ثم هناك طائفة جديدة غريبة لم نسمع بها من قبل بين جموع الشهداء، إنهم الحلاّقون، أجل الحلاّقون هؤلاء الذين يُرطّبون بشراتِ الرجالِ بالمساحيق ويَحلُقون الذقونَ والشواربَ مُرتكبين الإثمَ الأكبر في وجه القداسة!!

هؤلاء يجب أن تُقطعَ رؤوسهُم بالموسى ذاتِها التي يَحلُقون بها.. وما نفعهُم اليومَ، وأيُّ جمال ينشدُه الرجال الذين بفعلتهم هذه "يتخنثون" ويترققون؟

لم يخطر قط ببالِ فاشي أو نازي أو بربري مثلُ هذا الشكل من الموت والتشويه لكيان أمة بكاملها.. كان البرابرة بالأمس يحرقون الكتب أجل وكانوا يقطعون الرؤوس وكانوا يدمّرون المباني أجل ولكن هل كانوا يقتلون الحلاّقين وباعة السمك على ضفاف الأنهار؟ أجل باعة السمك آخر إبتكار سمعته هذه الأيام فقد جرى إغتيال العديد من هؤلاء ترى لماذا؟ أُريدُ لحظةً أن أستجمعَ كل قواي العقلية والذهنيّة والثقافية لمعرفة لماذا يُقتل باعةُ السمك على دجلة؟ لماذا يذبحُ هؤلاءُ الصيادون البؤساء؟ هل لأنهم يُشكلونَ صورةً أخرى لجمالِ المدينة وحياةِ النهر. هل لأنهم أبناءُ ليلِ بغداد، ليلِ النهر؟ كل هذا لا يروق طبعاً، كل هذا شذوذ وانحراف عقابهُ الموت والموتُ الفوري وبأبشعِ الأشكال وبدونِ محكمة ولا هُم يحزنون..

إنهم يبيعون الأسماك المعروفة في نهر دجلة كالكطّان والبُني والشَبّوط وقد صاروا لشحّة الأسماك في دجلة في السنوات الأخيرة يجلبون أسماكهم من الأحواض الاصطناعية فدخلت تسميات جديدة لا يعرفها العراقيون سابقاً ولم أفهمها عندما قيلت لي للمرّة الأولى.

بالطبع إنهم يحفظون تراثاً رائعاً يتمثل في أداء هذه المهنة، الشواء في الهواء الطلق على ضفاف النهر وهو ما يُعرف بـ "المسكَوف" هذه الطريقة الرائعة التي تُشوى فيها السمكة وتكون بأشهى حالاتها.. وهي طريقة لا يعرفها إلاّ البغداديون ولا تُستخدم لا في الجنوب ولا في الشمال ولا في

الغرب وهي تراث بغدادي محض. جُزءٌ من ترفٍ ربما يعود إلى أيام بغداد العبّاسيّة، ينطوي على فكرة ناجحة في إنضاج لحم السمكة قربَ النار وليس فوقها أو فيها كما تفعل أغلب شعوب الأرض.. هذا "السقف" الذي يصنعه هؤلاء الصيادون من أجسام السمك تخترقها أعواد وقصب، هو الذي أعطى تسمية "المسكوف" لهذه الطريقة في الشواء حيث يستبدل البغداديون القاف ب"كا" (g) الانكليزيّة.

في كل مكان تُذكر بغداد في الخارج خاصة في الدول العربية يُفاجئك العربُ بالحديث عن "المسكوف" فالذي جَرَّبهُ يفخرُ بأنه ذاقَهُ والذي لا يعرفُه يسألُ عن معناه. وكنت أتساءَلُ ما السرُّ في هذا المسكوف، ولماذا ذاع صيته هكذا أكثر من أيّة ممارسة فولكوريّة بغداديّة؟ بالطبع ليس الجواب فقط في ذائقة السمك النهري مشويّاً بهذه الطريقة ولكن الحياة على النهر في شارع أبي نؤاس تلك الأيام كانت بحد ذاتها شكلاً ساحراً لليالي بغداد وسمّارها، عاشقي النهر وحوريّاته وأشرعته. بغداد هذه هي التي يجب أن تموت؟ هي التي حكم عليها البرابرة اليوم بالدمار والتصحر والجهل والصمت.. ليل بغداد هو الهدف المطلوب الذي يجب أن يحترق وتُصوَّبُ نحوَهُ كلُّ الأسلحة بمُختلف أنواعها، ليلُ بغدادَ الساحر صار اليوم غَيهباً مدلهمّاً تخافُ أن تسير فيه حتى الكلابُ السائبة.. أشجارُ النهر التي تلتف في منعطفاتِ ضفافه لا يحُطُّ عليها إلاّ الغُبار ولا

تظهرُ فوق أغصانها إلاّ أكمامُ الجفاف والموتِ والحشرات.

إن قتلَ "السماكة" هو نقطةٌ غير إعتيادية تدل فعلاً على أن هذا القاتل يعرف عميقاً ماذا يفعل فبعد أن أنهى الحاناتِ والباراتِ وكان ذلك هدفاً سهلاً ومبرّراً دينيّاً حيث بكل سهولة يمكن إصدار فتوى تقتل كل مَن يبيع ويشتري الخمور التي منعها الإسلام، إلتفتَ القاتل إلى نُقطة أعمقَ للإيقاع بالحياة.. التفتَ إلى النهر وإني متأكد أنه اليوم سعيدٌ جداً أن هذا النهر الدفّاق صار ساقيةً صغيرةً جف ماؤهُ واحترقت ضفافُه.. أقول ولكن بالرغم من كل هذا ما زالت الحياةُ على ضفّتي النهر تناضل وتكابد لتبقى فالسمك على قلّته لم يزل يلبط ولو في الأحواض الاصطناعية وقد رأيت عدداً من هذه الأحواض. لحد الآن، على علمي، لم تصدر فتوى تمنع ذلك ولا يمكن أيضاً أن يصدروا فتوى تمنع شواء السمك بأية طريقة كانت، ولعلهم بحثوا في ذلك ولم يتوصلوا إلى حكم ديني.. فما العمل لإيقاف آخر نبض في حياة هذا الشاطئ الليلي الذي شكّل روحَ بغداد الساهرة وعشقَها للّيل والكأس والموسيقى؟ ما العمل لأنّه حتى عندما ذبحوا الحلاّقين كان هناك نوعٌ من "فهم" وتأويل ديني أو على الأقل تأويل غريب الأطوار مستوحى من السنّة النبوية – كما يقولون – ولو بدون النص.. أي ربما كان لديهم ما يفسرون به ذبح الحلاّقين الذين يدينونهم بإفساد مظاهر الرجولة والنُسك والصرامة.. أما في حالة "السمّاكة" هؤلاء فليس من نص ولا سُنة ولا قول ولا تأويل ولا

تصور ولا جنون ولا هستيريا يمكن أن تؤدي إلى فعلةٍ كهذه. ولهذا قاموا بفعلتهم دون تبرير ودون أيّة دلالة مباشرة مرتبطة بالدين والعقيدة لم ينظروا إلى هذه السمكة التي تشوى.. بل نظروا إلى الليل الذي تضيئه من حولها وإلى علاقتها بالنهر الذي يحتوي بضفّتيه كل معنى الحياة، نظروا وراء كل ذلك إلى بغداد في عُرسها الليلي فاستشاطوا غضباً.. نظروا إلى كأس أبي نؤاس في يديه وهو يتربعُ فوق قاعدته، تقف إلى جانبه ساحرةٌ من ليالي بغداد، نظروا إلى هذه الكأس الحجرية كيف تسيل على شفاه الزمن سُكراً واختيالاً يَصّاعدُ عبرَها ليلُ بغدادَ منتشياً بالحياة والجمال والحب.

نظروا إلى كل هذا ليقرّروا ذبحَ "السماكين" وهم يعرفون جيّداً أن أسماكَهم ليستْ حوريّات وأن أغانيهم ليست إلاّ مرايا حزينة ينعكس في أعماقها الروح العراقي الجريح.. لكن كل هذا يجب أن يضعوا له حدّاً.. فطعنوا الليلَ البغدادي في خاصرته وأسالوا دم النهر خارج ضفّتيه.

وعلى أي حال فإنهم بجريمتهم هذه جاؤوا فقط ليجهزوا على الضفة الثانية في الرصافة حيث شارع "أبو نؤاس"، وهي الضفّة الوحيدة التي ظلّت تحيا بعد أن صادر الديكتاتور الضفةَ الغربية من بغداد الواقعة في الكرخ حيث يتربعُ الوحشُ الجمهوري المسمّى بالقصر فوقَ دجلة منذ عقود وحيثُ منعَ النظامُ المقبورُ منذ مجيئه إلى الحكم في أواخر الستينات كلَّ حياة على تلك الضفة وحوّل المنطقة إلى "جيتو" إرادي لا يسكنه إلاّ

رجال الأمن والاستخبارات والعائلة الصغيرة الكبيرة من المقربين إليه. شاطئ الكرخ هذا كان جُنينةً صغيرة تسمى "كَرادة مريم" فيه بيوتاتٌ بغدادية جميلة بحدائقها وهندستها تسكنُها عوائلٌ ميسّرة وغنيّة وبعض الضباط الكبار في الجيش – أعرفُه هذا الحي قبل أن يتحولَ إلى معسكر إرهاب أيام صدام حسين، أعرفُ لياليه وندى أسحاره وأعرف شوارعه النائمة وأعرف هدوءَه، لقد كان حقاً جنّة صغيرة..

في الفترة الأخيرة من حكم صدام حسين صار ممنوعاً أن تتوقف سيّارة في شوارعه مهما كان السبب حتى وإن حدث ذلك لعطْلٍ في ميكانيكها.. الوقوف ممنوع وإطلاق النار الفوري مصرّح به ضد أي توقف.. يمكن تصور الرّعب الذي يملأ قلب سائقي العجلات عندما يعبرون إضطراراً – طبعاً – في هذه المنطقة المحرّمة التي يُمنع فيها المشي على الأقدام على العكس تماماً مما يحدث في بلدان العالم الحر حيث الأحياء الجميلة تتحول إلى أحياء لا تمر فيها العجلات تُخصّصُ فقط للمارّة والسابلة وذلك لكي يتمتعوا بالتجوال والتبضع والجلوس في الهواء الطلق حيث المقاهي والمطاعم والموسيقى..

هكذا نحن في العراق نُمعنُ إلى أقصى الدلالات حُمّىً وعنفاً ولكن بالاتجاه المعاكس.. حيُّ الكرّادة هذا كان يمكن أن يُصبح مرتعاً لحياة بغدادية سامرة على ضفة النهر.. ولكن لأن الديكتاتور يَنامُ أحياناً في هذا المكان صار

لا بد من إخلائه من كل نَبضٍ ومن كل خُطوة ومن جناحِ كُلِّ طائر..

تُرى هل كان يكرهُ البشرَ لهذهِ الدرجة أم يخافُهُم لهذه الدرجة؟ تُرى هل أن منظر الجمال بدون بشرٍ يُمكن أن يتكامل ويزدهر؟ العراقيون يقولون "جنة بلا ناس ما تنداس" لا بل قد داس على الناس وهو يظن نفسه في أحضان الجنان.. قبل أن يستفيق في حُفرة مطموراً كفأرٍ يُعالجه من القَملِ جُنديٌّ أمريكيٌ يرتدي قفّازات بيضاء من البلاستيك لكي لا يُلوّث يديه وهو يفحصُ وجهَه وفمَه وكأنه حشرة بشرية هائلة الحجم أمسك بها جندي غريب.

هكذا مات دجلةُ أو هكذا يموت دجلةُ فأنت تراه اليوم يرفسُ في سريره مثل جسدٍ مائي يُحتضَر. سُرقتْ أمواجهُ وجنيّاته وصيّادوهُ وهُجرت ضفافهُ وأُحرقتْ لياليه وشُرّد أهلُه ومريدوه.. ماذا بقي من نهر بغداد؟

إن حي "كرّادة مريم" هذا ما زال منطقةً محرّمة حتى بعد سقوط الديكتاتور وكأن جمالَه وموقعَه صار لعنةً عليه فهذه المنطقة وما حواليها من بغداد هي ما يعرف اليوم بـ "المنطقة الخضراء" Green zone وهي اليوم محصنة بأعلى الخراسانات المسلّحة ومدججةٌ بكل الأسلحة تعيش وتعمل فيها المؤسسات الحيويّة للنظام الجديد ففيها الحكومة والبرلمان والسفارات وكل الشخصيّات الوطنية والأجنبيّة.

هذه المنطقة المحرّمة لم نستطع بالأمسِ دخولها وكنّا على موعد مع أحد سكانها الذي هيّأ لنا العشاء وكان ينتظرنا ولكن ولأسباب نجهلها لم نستطع بالرغم من وجود البطاقات الرسمية التي يحملها البعض وبالرغم من السيّارة الرسمية فإن الجندي الأمريكي الذي يقف أمام الحاجز رفض السماح لنا بالدخول.. هل كان السبب أننا وصلنا متأخرين في الليل أم أن هناك معلومات.. إنذارات.. مخاوف.. لا أدري.

على أي حال عندما طلب مني الجندي الأمريكي الاطلاع على جهاز الموبايل الذي بيدي، وبعد أن تأمله بدقة صاح: "Oh Jesus" "أيها المسيح الرب" وأعادَه لي.. كنت أتساءل في نفسي – لماذا وأيّ مسيح؟ ولكنني رأيت أن على شاشة موبايلي الشخصي تظهر صورة إبني الصغير "أنائيل" الذي يبلغ إحدى عشر عاماً من العمر وعلى وجههِ في الصورة إبتسامة بريئة ساحرة.. تُرى هل هو الذي ذكّر هذا الجندي المؤمن بالمسيح؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا رفَض دخولنا؟ لا أدري كنّا على أي حال في ساعة متأخرة نسبيّاً من الليل في بغداد...

• • •

يبدو أن كل رموز النهر قد حكم عليها بالتشويه والامّحاء؛ جنوب العاصمة حيث "أبو نؤاس" وحيث "كرادة مريم" و"الكرادة داخل

وخارج" فبعد أن أجهزوا على كل المعالم والملامح ومرافق العمل والعيش في هذه الضفاف الواقعة جنوباً عادوا إلى النهر أيضاً في وسطه قرب سوق الورّاقين وبموازاة شارع الرشيد جهة النهر حيث ما يعرف بـ "شارع النهر وهو أقدم شوارع بغداد ويقال أنه إمتداد لشارع عباسيّ يقع في قلب العاصمة القديمة ويتواصل مع إمتداد الجامعة المستنصرية وكل أسواق بغداد أيام زمان. هذا الشارع كان يشكل رمزاً آخر من حياة المدينة مرتبطاً بالمرأة ومفاتنها، بملابسها وعقود حليها بأسرارها ومخابئها.. شارع النهر كان الضفة العاشقة المعشوقة، كان ذراع النسوة المطوّق بالأسوار والحلي، كان عُنقَ البغدادية موشّىً بالذهب، كان جسدَ البغدادية موشحاً بالدانتيل والأردية الشفافة كان ملجأ البغدادية للقاءٍ أو لشراء أو لطواف بريء وغير بريء.. كانت بغداد الأنثى تذهب إليه تتعطر وتتجمل وتسرق لحظات النشوة أحياناً.

شارع النهر هذا هو الآخر ولنفس الأسباب التي ذكرناها وربما بشكل أقسى هذه المرّة تعرض ويتعرض لويلات من كل نوع. شارع النهر تنسفهُ المفخخاتُ تارةً وتخترقُه رصاصاتُ الاغتيالاتِ أخرى والخطفِ ثالثةً والتهديداتِ رابعةً. يُضافُ إلى كل أعمال الرعب المباشرة التي هددت حياة الشارع نفسه ومصدَرَ رزقه والمارَّة فيه حُوصر من جهةِ رُوّادهِ من النساء اللواتي مُنعنَ من قبل الآباءِ أو الأزواج أو الأخوان،

هكذا بقرار ذكوري جامع مُعلن وغر مُعلنٍ يحظرُ على المرأة الإلتقاءَ بجمالِها وبأسرارَ أنوثتها ومواعيدَ حُبها وعُشقِها.

ما زال شارع النهر يقاوم.. ما زال يكابد، تماماً مثل شارع المتنبّي وبشكل أقل شارع أبي نؤاس الذي يبدو أكثر انهياراً وجفافاً. ما زال شارع النهر على قيد الحياة ولكن شَحُبتْ مراياه والتفتْ نساؤُه بالأوشحةِ السوداءِ وطُرد رجالُه مثل آدم من الجنان فقد صار مرورُ الرجلِ شُبهةً وإختفتْ من مداخله وأرصفتِه الالتفاتاتُ السريعةُ والنظراتُ الخاطفةُ والرؤوسُ المرتدّةُ يَمنة وشَمالاً قبل أن تَدخلَ الدكاكينَ خشيةَ أن تُرى.. إختفتْ المرأةُ التي كانت تتسللُ نهاراً إلى هذا المكان لتُحقِّقَ شيئاً من وجودها، لترى نفسَها في مِرآةٍ لا تراها في بيتِها لتملأ شفتيها بالألوان الزاهية وتنظرَ بِعَينَيْها المكحّلتينِ إلى الرجال العابرين وإلى المارّة مزهوّةً بنفسها.

إنتهى شارع النهر إختفت صورتهُ وجفتْ أسرارُه التي كانت تُضجُّ بالعُشقِ والأنوثة.

إن مأساةَ شارع النهر هذا هي الشاشة الكبيرة التي تتراءى فيها تراجيديا المرأة العراقيّة اليوم، فهي بالرغم من السياسة الرسميّة للدولة التي أرسلتها إلى مقاعد البرلمان وبنسبة كبيرة (٢٥٪) تواجه أعنفَ حملاتِ القمع والترهيب والاغتصاب والتهميش من قبل المجتمع وليس الدولة بالمعنى الرسمي.. أي أن صُعودَ الدين من جهةٍ والمتطرفين

الارهابيين باسم الدين من جهةٍ أخرى كُلّهم يستهدفون في الواقع هذه المرأة الضحية الجاهزة للرجل أوّلاً وللمسلم ثانياً وللارهابي ثالثاً، كلهم وكلٌّ بطريقته يمارس فيها أعنفَ أشكال الهيمنة والحَجْر والحَجْب وكلُّ ذلك باسم الدين والعاداتِ والتقاليد حتى أن بعض النساء يُذبحنَ وتُرمى جُثَثُهُنَّ في الشوارع كما حصل في مدينة البصرة مؤخراً حيثُ وجدَ الناسُ جُثثَ بعضِ النساء ملفوفةً بالحجابِ الأسود "العباية" ملقاةً مُضرجةً بدمائها على الأرض.

أيُّ دين هذا، وأيةُ تقاليد، وأيُّ إيمان وأيّةُ مبادئَ تَشحذ هذه السكين في هذا الجسدِ – المرأة، لقطع رأس الكيان الانساني وجعله مِسخاً لا يستحق البقاء؟

إن سحقَ المرأة بهذه الطريقة إن هو إلاّ الانحدار الأعمق لوجودنا في الحياة ما دمنا نسمح بهذا، نُطيق هذا، فكيف يُبرّرهُ البعضُ أو يتغاضى عنه؟ إن إنسانيّتَنا وبشريّتَنا هي التي تُطعن بهذه النصالِ وهي التي تُسفك دماؤها وهي التي تتمدد على القارعة ملفوفةً بأوشحةِ حداد لا حَدَّ له.

كانت المرأة البغدادية، على الأقل في سنوات الستين، تتنزّهُ "سافرةً" كما يقال أي أنها ترتدي ثياباً طبيعيّة كما يجب أن تخرج المرأة في الحياة، وكان هذا "السفور" إحتجاجاً هادئاً على صورة المرأة التقليدية ذات العباءة السوداء.. كان عدد السافرات يتصاعدُ وأزياؤهنّ تبدو أكثر جمالاً

وتناسقاً وكان المجتمع سعيداً بهذا التطور حيث غالبيّةُ أبناءِ المدن على الأقل كانوا يدفعون عجلة التطور بهذا الاتجاه. واليوم صارت السافرات مثل الطيور المهاجرة التي تمر لِماماً في الأفق حتى أن مشهد الجامعات صار يغصُّ بالمحجّبات مثل مشهد الجوامع أو العتبات المقدّسة التي لا تدخلها النساء إلا محجّبات، وكأن معنى الصلاة هو أن نُغيّب المرأة ولا نبقي منها إلا منظر العينين.. الصلاة بهذا المعنى إذن هي إندثار لنصف الحياة.

• • •

كنّا نواصل "نزهتنا" فوق الاعتياديّة هذه عندما عبرت أمامنا إحدى سيّارات النقل التلفزيوني بكل معدّاتها وحرسها وأعلامها ومُرسلاتها، سيارةٌ من نوع الدفع الرباعي تابعة لإحدى القنوات العربية الشهيرة..

إن تواجد قنوات التلفزيون العربية والعالمية وعددها يتجاوز المئة وحرّيتها بالعمل والتصوير في كل مكان في العراق يبعث في واقع الأمر وقبل كل شيء على التفاؤل والاطمئنان من أن العراق ليس فقط شاشة مفتوحة للإعلام ولكل أنواع "الميديا" كما يقال ولكن ربما حدَثتْ مبالغة في الأمر فقد أصبح وكأنه ساحةٌ "مستباحة" تمارِسُ فيها السلطةُ الرابعة كل أشكال نفوذها وتأثيرها داخلياً وخارجيّاً.. ما زلت أتذكّرُ الحوارَ الذي أقمتُه مع إحدى البرامج "talk show" التلفزيونية في إحدى

القنوات العربية من بيروت قبل عودتي الأولى إلى العراق عام ٢٠٠٣ عندما سألني المحاور: "هل أنت خائف من العودة بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الغياب؟" أذكر أنني أجبته: "لا بالعكس لأنكم أنتم هذه المرّة موجودون وتصوّرون كل شيء ولهذا فأنا تحت الأضواء هناك ولا خوف عليّ.." لأنني أؤمن أن حرية العمل الصحفي والإعلامي هي في الواقع ضمان من التجاوزات التي يمكن أن تحصل..

ولكن السؤال الأهم من هذا هو: "أين كانت كل هذه الكاميرات أيام صدام حسين حينما كان يملأ ساحات للأعدام الجماعي بحجم ملاعب كرة القدم ويدفن الجثث في مكانها؟ هل كانت كاميرات القنوات التلفزيونية العربية وغير العربية مصابةً بالعمى؟! وأين كانت كُلُّ مكبراتِ الصوت هذه التي تتقافز اليوم من كل زاوية في بغداد وتصرخ من على الشاشات والاذاعات، هل كانت مصابةً بالخرس؟!

إننا اليوم نسمع عن الاهتمام والحرص الكبير المتزايد على الديمقراطية والحريّة وضرورة إحترام قواعدها ومبادئها وما إلى ذلك من أدبيّات وتجاريب وتفقُّهٍ وحَماسٍ وكلُّ هذا يُسرّنا ويدعونا إلى الفخر والاعتزاز أن المضمار الحقيقي الذي تتسابق فيه كل هذه الخيول تنشدُ قصبَ السبق لقيمٍ ومبادئَ رفيعة من هذا النوع هو عُراقُ اليوم وهي تجربةُ هذا الشعب التي يُسقيها دمَه وعصبَ حياتِه ولكننا لا يمكن أن

ننسى ولو للحظة واحدة أن كلَّ هؤلاء كانوا بالأمس لا يجرؤون أن يرفعوا إصبعَهم "اعتراضاً" أو "سؤالاً" فقط بوجه الدكتاتور الأوحد. ولهذا فإن الشعب العراقي وحدَهُ سيّدُ هذا المصير وهذه التجربة بكل إخفاقاتها ونجاحاتها وليس بحاجةٍ إلى دُروس في الديمقراطية أو الحريّة. وحدُهُ هو الذي يعرف معنى "الاحتلال" و"الاستبداد" ويعرفُ كيفَ يشُقُّ طريقه نحو مُستقبلٍ انساني لائق بهِ وبدوره أمسِ واليومَ وغداً.

• • •

أَمامَ تمثال الشاعر الرصافي وسط شارع الرشيد وقفتُ طويلاً.. هذا الرصافي الذي عاد إلى الساحة الثقافية بعد أكثرَ من نِصف قرن على وفاته، عادَ لا كشاعر بل كمتمرد على أكثرَ رُموز الدين الاسلامي قَداسةً، وهو النبي محمد بن عبدالله، وذلك بعد صدور كتاب له يحمل عنوان "الشخصيّة المحمّدية" والذي نشره الشاعر والناشر العراقي خالد المعالي في مدينة كولن في ألمانيا قبل بضع سنوات.

عاد الرصافي الذي لم يكن يُعرف إلاّ كشاعر من تُراث مرحلة النصف الأول من القرن المنصرم بعد أن كتب قصائد إحتلّتْ موقعاً سياسيّاً في تأريخ الشعر العراقي المعاصر وكان حضورُه السياسي أكثر من الشعري إذا ما قورن بمجايله الجواهري الذي جمع بين الحضور السياسي والشعري.

كانت هذه العودة تتركز أهميّتُها وحدّتُها في أطروحته عن شخصيّة الرسول محمد التي حاول أن يحلّلها بجرأة وإحاطة كبيرتين فيما يخص خبايا وتفاصيل الدعوة المحمّدية وأسرارها.

خَلُص الرصافي في هذا الكتاب إلى أن محمد بن عبدالله هو أعظمُ شخصيّة عربية عرفها التأريخ وهي التي بنت هذه الأمة من خلال ابتكاره" العبقري. الدين الإسلامي.

تلك هي القنبلة التي أعدّها الرّصافي عام ١٩٣٣ في الفلّوجة، مسقط رأسه وهو عائد من القدس حيث أقامَ وعلَّمَ هناك عدداً من السنوات، وأقول "القنبلة" لأن الرّصافي هو الآخر كان يخافُ انفجارَها في حياته ولذلك بعد أن نشر فصلاً أولاً من الكتاب قامتْ ضجةٌ في بغداد خاف الرصافي من استمرار نشر كتابه هذا فأوقف النشرَ وأوكلَ المخطوطةَ إلى السياسيّ العراقيّ المعروف كامل الجادرجي صديقِه الحميم، مُؤسسِ الحزب الديمقراطي، أولى الشتكيلاتِ السياسيّة العلمانية المتفتحة في العراق المعاصر.

أودع عنده وديعته "المفخخة" هذه - اعذروني عن تكرار المفخخة فقد أصبت كما يبدو بعدواها في كل ما نقرأ ونسمع هذه الأيام -. ظلّت المخطوطة طيَّ الكتمان سنواتٍ طويلة بعد وفاة كامل الجادرجي نفسه ثم نُشرت بشكل محدود في ألمانيا قبل أن يأتي خالد المعالي، الشاعر العراقي

المنفي الذي نجح في بناء دار نشر متميزة بجهد شخصي في ألمانيا وسمّاها "دار الجمل" لينشرها في العالم أجمع.

هذا الرّصافي في الوقت الذي فجّر فيه الهالة المقدسة لصورة نبي الإسلام محمد بن عبدالله ألقى أيضاً في نفس الكتاب بجامِ حقدهِ وغضبه على شيعة العراق واصفاً إيّاهم بـ "عبدة الأصنام" لأنهم يمارسون الطقوس في زيارة العتبات المقدسة ويقبّلون شبابيكها المعدنيّة في أضرحة الأئمة التي يؤمونها أوقات الزيارات.

أمام تمثال الرصافي صِرتُ أقول لنفسي كم يستحق الرصافي مثل هذه الوقفة في عراق الطائفيّة اليوم فقد كان نُموذجَ المثقف الطائفي وأن عراق اليوم الذي يموج بالمدِّ الطائفي قد وجد في صوت الرصافي صداه الغائب المنسي في الماضي..

كيف لم يلتفت الإرهابيون والمتطرفون من السنة والشيعة لهذا التمثال الذي ما زال واقفاً حتى هذا اليوم؟ الأصوليون والسنة والقاعدة والوهابيّون كيف فهموا وهل قرأوا أو سمعوا بالرصافي المتمرّد على نبيّه؟ والشيعة وكل الميليشيات والمسلحين الذين يحيطون بهم كيف سكتوا أمام هذه التهمةِ الخطيرة. أم تُرى أن الارهاب لا يحب إلاّ الدماء وأن التمثال بالتالي هو الموت أما الرمز فلا يعنيهم بالكثير. أو أنهم ما زالوا الآن منهمكين بقتل الأحياء ولم يفرغوا بعد لقتل الموتى وتصفيتهم كليّاً من الوجود ومن الخلود.

لا أدري أتمنى لتمثال الرصافي حياةً أطول وسط هذا الدمار والعواصف الدامية التي تجتاح عاصمته.

ولكن المفاجأة أمام تمثال الرصافي كانت بالنسبة لي مزدوجةً. هذا الشاعر الذي لم أكن أحفظ له إلاّ بيتاً واحداً من قصائده الوطنية المعروفة يومذاك وهو:

"علم ودستور ومجلسُ أمّةً كُلٌّ عن المعنى الصحيح محرّفُ"

لستُ الآن بصدد مُناقشتِهِ في موقفه من الشيعةِ ولا في نظريته بشأن النبي محمد بن عبدالله ولكن الرّصافي مَعْلمٌ شعري سياسي في تأريخنا المعاصر وتحتفظ بغداد بتمثاله في قلب شارع الرشيد حيث ما زال الشاعرُ ابنُ الفلّوجة يشكل ملمحاً من ملامح بغداد وتأريخ العراق الوطني وحياته الاجتماعية لما عُرف به من تمرد تارةً وولاءٍ سياسي أُخرى في حاضرة عراقيّة كانت بدأت تتضح ملامحها في النصف الأول من القرن المنصرم. أقول إنها مفاجأة مزدوجة ذلك لما قرأته مؤخراً في كتاب نشرته "دار الجمل" أيضاً حمل عنوان "الرسالة العراقية" وفيه يعترف الرصافي في محاورة طريفة مع صديقه كامل الجادرجي بأشياء كثيرة لم تكن تقال عنه أو تعرف بوضوح مثل حُبه للغلمان وتفضيله لهم على النساء وهو يبرر هذا بشكل واضح ويحاول أن يقيم البرهان على صحة نوازعه. كنت أقرأ آراء الرصافي هذه في المقابلة مع كامل الجادرجي وكأني أطالع جريدة "لوموند" الفرنسية تنشر خبراً عن أحد المنحرفين جنسيّاً وهو ما يسمّى

في فرنسا اليوم بـ"Pédophile" أي المهووس بالأولاد الصغار وهذه جُنحة يعاقب عليها القانون لأن الأولاد الصغار قاصرون وأي تغرير بهم وانحراف عقوبته شديدة في القانون الفرنسي والعالمي تصل إلى الحكم بالمؤبد. ونحن نذكر ما جرى للمغني الأميركي الشهير "جاكسون" والمحاكمة الطويلة التي واجهها.. كان الرصافي والجادرجي يتحاوران بهذا الشأن في بغداد في الثلاثينات أي قبل حوالي أكثر من سبعة عقود من السنين. وكان الحديث يبدو طبيعيّاً ولا غرابة ولا سؤال ولا احتجاج...

على أي حال إنني أتعرف هذه الأيام على شخصيّة جديدة بكل معنى الكلمة اسمها "معروف الرصافي" ليس الشاعر، بل معروف الرصافي الخفي الذي خبّأه تأريخنا الأدبي المعاصر واكتفى بتحفيظ أطفال المدارس الابتدائية مقاطع من قصائده الوطنية يومذاك. إنني أتعرف على الوجه القديم الجديد، الذي غاب عن الحياة الثقافية العراقية والعربية أكثر من نصف قرن.

إن هذا العجز المعلن في حياتنا الثقافية وفي رموزها إن دلّ على شيء فإنما يدل على أننا لا نعرف اليوم حتى معاصرينا وأن النقد والتأريخ الأدبي ما زال محدودَ الأثر والتأثير وحتى يمكن القول أنهما يقبعان في هامش سحيق.

● ● ●

على مقربة من التمثال تبدو بناية "بنك الرافدين" أهم المصارف العراقية وكأنها تميل إلى الأرض، مظهرها الخارجي لا يدل على أنها مصرفٌ رئيسي لواحدة من أغنى دول المنطقة في حين أن الأموال العراقية اليوم تغذي أكبر البنوك العربيّة والعالميّة بالمليارات الشرعية واللاشرعيّة.. وبنفس الوقت فإن بغداد التي لا يوجد فيها اليوم فندقٌ من الدرجة الأولى يستحقُّ الذكر فإن الأموال العراقية المهرّبة والهاربة تَبني أجملَ الفنادق في عمّان وبيروت ودبي.. ولا يوجد شيء من هذا في العراق كله.

أمام "بنك الرافدين" ما زلت أتذكر تلك الحادثة الغريبة التي كان يتحدّثُ ويتندّرُ بها العراقيون في الأيام الأولى لسقوط النظام عندما مرَّ موكبُ جَنازةٍ مَهيبٌ وسطَ شارع الرشيد يُحيط به المشيّعون بأعداد كبيرة، تعلو فوقها التكابيرُ والمراحَمُ والآياتُ القرآنية وعندما إقتربَ الموكبُ من بنك الرافدين إنعطفَ حاملو النعش وبسرعة نحو باب المصرف ودخلوا والجنازةُ معهم إلى صالة البنك مُثيرينَ الرعبَ داخل المصرف والاستغرابَ والدهشةَ في الشارع..

لم تكن في الجنازة جُثة، بل كانت تحتوي على الملايين من الدولارات لم يجد صاحبُها طريقةً لإيصالها إلى البنك إلاّ بهذه المسرحيّة "التراجيكوميديّة" التي أشركَ فيها القريبين والبعيدين وحتّى المارّة وكان قد رتّب الأمر على أعلى المستويات كما يحصل في الوفيّات من حيث إقامة

العزاء ولم ينس أي شيء حتّى النادبات والنساء اللواتي يمزقن ثيابهن وينثرنَ شُعورَهُن وهكذا أخرج الموكبَ من منزله وهو في ذروة العزاء.. وقد صدّق كُلُّ من رآهُ من الناس ومن العابرين حكايةَ الجنازة فتعاطفوا مع أهلها ليسيروا معهم في موكبهم الجنائزي طلباً كما يقال لـ "الأجر يوم القيامة"، كعادة العراقيين في المناسبات الحزينة.

هي صورة المضحك المبكي في عراق اليوم حيث لا نعرفُ من أين نقرأ فُصولَ هذه التراجيديا الإغريقية التي أبطالها عراقيون أبرياء، فقراء وعزّل؛ أطفال ونساء..

قرب "بنك الرافدين" يقعُ أهم أسواق بغداد والعراق قاطبةً وهو المسمّى بـ "الشورجة" ولعله الاسم العباسي القديم لـ"الشيرج" وهو دهن السمسم كما يقول بعض المؤرخين، وفيه تتركز البضائع الغذائية بشكل خاص وإليه يهرعُ البغداديون لشراء كل لوازمهم الخاصة بالطبخ وشؤون التغذية وما إلى ذلك.. وهو سوق قديم تخطفك إذ تدخُله الروائحُ ومشاهدُ "البسطات" أي أسلوب عرض المواد وطريقة نثرها أو تكديسها على أكوام كبيرة أو في جِران وعلى رفوف خشبية قديمة. هذا السوق هو الآخر دخله الموت مرّات عديدة ونثر الدماء والأشلاء فوق بضائعه..

الهدف بالطبع هو إعادةُ بغداد عاصمة العراق إلى قرون وراء، إلى بقايا وشظايا مُجتمعٍ لا يقدرُ على التواصل والعمل والحياة.

تُرى هل هناك حُكمٌ أُطلقَ بحقّ العراقيين وهو ينفّذُ الآن بإعدام مدينة بغداد بالمفخخات من كل نوعٍ وبالقتل في كل منعطفٍ وبالخطف والتهجير والتطهير العرقي في كل حارة. أيّ إنتقام هذا؟ هل هو إنتقام من المحتل؟ أم هو إنتقام من العراق وطناً وشعباً وكياناً وثقافةً وحضوراً في المجتمع الدولي؟ ليس من الأصعب الإجابة على هذا السؤال ولكن الأصعب والأقسى هو تجاهل الكثير، خاصة من الدول العربية المجاورة والبعيدة على حدٍّ سواء لهذه الحقيقة والاستمرار في اللا إكتراث وتغطية هذه المذبحة بأقنعة وذرائع باسم الاحتلال لم تعد تخفى على أحد اليومَ وبعد هذه السنوات الطويلة من الإبادة البطيئة لشعب بكامله.

في الجهة المقابلة من "سوق الشورجة" يمتد سوق توأم لهُ؛ هو "سوق الصفافير" أي سوق النحاس والحديد وكل المصنّعات النحاسية الفولكلورية التراثية التي تستهوي السياح بالدرجة الأولى أو تلك التي تختصُّ بالقدور والصحون والدوارق.. سُوقان مكملانِ لبعض، هُما عصب الحياة الغذائيّة البغدادية؛ ففي الشورجة الغذاء وفي الصفافير الأدوات والمعدّات وكل لوازم المطبخ وسواها.

سوق الصفافير هذا عندما تدخلُه فإنّ أهم ما يُفاجِئُك فيه أن الكل يطرقُ بالصفائح دون إنقطاع هكذا في سمفونية متلاحقة متواصلة تأتيك أنغامها من كل جهة.

وهو بهذا سوق حيّ على العكس من خان الخليلي في مصر حيث تباع فيه نفس أنواع البضائع فيما يتعلق بالنحاسيّات لكن سوق خان الخليلي يعرض فقط المنتجات ولا يصنعها أمام المارين والزبائن كما هو الحال في سوق الصفافير ولهذا يبدو هذا الأخير صاخباً لا ينقطع فيه القرع والطرق طيلة النهار.

• • •

في الطريق إلى "ساحة الميدان" في الأمتار الأخيرة من شارع الرشيد كان لا بد من التوقف عند مقهى "حسن عجمي" وهي المقهى التي التقيت فيها للمرّة الأولى عام ١٩٦٨ بالشاعر العراقي الكبير الراحل "عبدالأمير الحصيري" المشرد الكبير الشاعر الذي لا يعرفه العرب ولم يخرج شعرُه إلى الدول العربية والقراء العرب بسبب صعلكته من جهة ورحيله المبكر من جهة أخرى.. ثم أن هذا الأمر لم يكن يعنيه على الإطلاق لأنه حتى داخل العراق لم يهتم بنشر شعره ولم يصدر له إلاّ كرّاس صغير قام بجمعه بعض أصدقائه بعد وفاته.. لعل هذا الأمر هو سبب تذكري له اليوم فقد كنت خارج العراق عندما يذكر الشعر العمودي وشعراؤُه الكبار أستشهد بشعر الحصيري ولا أحد يعرفُه من النقاد والأدباء العرب.

كان الحُصيري هذا شاعراً متمكناً من اللغة والعروض والصورة القوية والرؤية. وهو من أهالي النجف وقد درس في الكتاتيب هناك وهجر هذه المدينة لأنها لا تلائم مزاجه وأهواءه فهي مدينة محافظة وفيها أكبر رموز الشيعة، مرقد الإمام علي بن أبي طالب وحوله تتمركز الحياة الاجتماعية والدينيّة وإلى جانب الضريح الذي تؤمُّه الملايين في المناسبات الدينية توجد أكبر مقبرة في العالم.. "دار السلام" يطلق عليها العراقيون هذا الإسم الذي يوحي أن السلام عندهم مرتبط بالأبدية. ولا سلام قبلها. هي المقبرة التي يحلم كل أبناء الطائفة الشيعيّة في كل مكان في العالم أن يدفنوا فيها وهكذا تأتي الجنائز من كل بقاع العالم الاسلامي وسواه لتدفن في هذه الأرض التي يعتبرها أبناء الشيعة أرضاً طاهرة لأنها تضم رفات الإمام علي بن أبي طالب، ولهذا فإن المؤمنين يعقدون الآمال ويشدّون الرحال إليها أحياءً وموتى على حد سواء..

من هذه المدينة التي تحيا بين ضريح مقدس وبين مقبرةٍ مشتهاة خَرج عبدالأمير الحصيري وفي أعماقه كل شيء مضاد لما تعنيه هذه المدينة وما تحمله من رموز.. إنه الإبن "الضال" بكامل هذا المعنى لمدينته لأنه يقضي نهارَه وليله مخموراً وعندما يصحو من سُكره يَعبثُ ويُسيءُ إلى القريبين والبعيدين على حد سواء.. ولهذا لا تجده في أفضل حالاته إلاّ منتشياً..

إلتقيته بعد أن اقتربت من الوسط الثقافي الشعري على وجه الخصوص

مباشرة بعد فوزي بجائزة الشعر في مهرجان كلية الآداب عام ١٩٦٨ وكان قد سمع قصيدتي والتقاني هناك ليقرأ لي شعراً ويطلب بعض الدراهم فهو يعيش على عطايا الأصدقاء الشعراء والمحبين لشعره..

أتذكر أنه، لقاء درهمين، قرأ لي قصيدة ما زلت أحفظُ منذ تلك الأيام أبياتاً منها وهي تُفسر إلى حد كبير رُوحَ وعبقرية هذا الشاعر وقد ظلت في ذاكرتي لأنها أبيات نادرة:

"أنا الإلهُ وندماني ملائكةُ

والحانةُ الكونُ والجلاّسُ من خُلقوا

أنا الشريدُ لماذا الناسُ تذعُرُ من وجهي

وتهربُ من أقدامي الطرقُ"

هكذا كان عبدالأمير الحصيري، إلهاً وثنيّاً ملعوناً يقبعُ في رُكن المقهى وكان الناسُ والأحياء نداماهُ الدائمين شاؤوا ذلك أم أبوا.. وفي نفس الوقت كان البائس التعيس المشردَ الذي تذعرُ المارّة منه فهو "يتطوطحُ" عندما يمشي، وتعني بالدارجة العراقية "يترنّح" ولا يمشي إلاّ تحتَ وطأةِ الخمر فتهربُ حتى الطرق من قدميه.

مات عبدالأمير الحصيري وهو على أبواب الخمسين بعد أن وُجد في آخر الليل جثةً هامدةً ممددةً على أحد الأرصفة.

ما زلت أرى من زجاج نافذة "حسن عجمي" المقعد الذي كان يحتله

طيلةَ سنوات الستين الشهيرة في تاريخنا الأدبي والسياسي.. وأقول في نفسي. حسناً فعلت يا عبدالأمير وقد رحلتَ قبل أن يجتاح بغداد هذا المدُّ الأسود الدامي الذي بالتأكيد لم يكن ليوفر لك يوماً تقضيه في بغدادك مُنتشياً بالشعر والخمر في أعماقك راقداً على رصيف.

مات عبدالأمير الحصيري مع صورة بغداد التي كانت تموت شيئاً فشيئاً وقد بدأتْ بموتها التدريجي هذا منذ أواخر الستّينات عندما توفي من توفاه الله من رموزها وقتل من اغتالته السلطة وغاب من غيّبته السجون ونفي من أفلت من القبضةِ – القدرِ، هذه المدينة.. كنت من بين الناجين الذي حزم الحقائب ورحل في نهاية الستينات وكنتُ في الخارج أُصغي كُلَّ يوم إلى وقع أقدام النهايات تدوس مدينتي حتى عدت إليها هذه الأيام لأشهد الجثة المحترقة الممدّدة على ضفتي النهر أراني اليومَ أطوف فيها وحولها ولا أصدق هذه الصورة القياميّة لها.

• • •

تتراءى أمامي الآن "ساحة الميدان" في باب المعظّم وإذا كانت ساحة الهال Les Halles تسمى "معدة باريس" حسب أميل زولا لأنها سوق الخضروات وكل أنواع الأغذية التي كانت تصل باريس في القرن التاسع عشر فإن باب المعظم هي أحشاء وجوارح بغداد ففيها الكثير من أسرارها وأسواقها وجندها وماخورُها وأكثر أشكال فنادقها ومطاعمها

شعبيّة ومنها أيضاً تنطلق باصات الركاب إلى كل أنحاء العاصمة فهي بهذا تشكل أيضاً المحور الحيّ للتنقل. في أزقتها وأحيائها نجد صورة بغداد القديمة وفيها أيضاً "سوق الهرج" وهو ما يعرف في فرنسا بـ "سوق القمل" Marché du puce حيث تجد كل شيء. يمكن أن تشتري وتبيع أتفه وأكثر الأدوات والأجهزة إبتذالاً وغرابةً فلها مشترون وباعةٌ منتفعون وعالمٌ متكامل بذاته.

في هذا السوق الذي يتجمهرُ فيه الآلاف كل يوم يمكنك أن تجد كل شاردة وواردة وكُلّ ما يخطر وما لا يخطر بالبال.. أحشاءُ المكائن والماطورات، بقايا علب فارغة صدئة، زجاج حتى مهشم، إنه الحياة بفوضاها والركام الذي يرفض الناس أن يتخلّوا عنه وحيث يجد البعضُ فائدةً ما في إقتنائه. هنا أيضاً الحياة بهامشها الصاخب المكتظ قد إستُهدِفَتْ بدورها ولأن كل شكل للحياة هو هدف جاهز إذن ليُدمّر، ليفخخ ويفجّر هكذا في غمرة الزحام هنا بين حطام الأجهزة والأشياء تناثرت الأعضاءُ البشرية والأشلاء في يوم ما وكأن الصورةَ يجب أن تكتمل في هذا السوق الذي يبيع كل شيء إلاّ الأعضاء البشرية ليصبح المشهد في ذروة المأساةِ الملهاةِ.. ذروةِ العبث وذُروة الجنون.

لكن دورةَ السوق أقوى وإرادة البغداديين أقوى والحياة أقوى.

• • •

إنّ أهم معالم ساحة الميدان هي أنها كانت تضم في أزقتها ما يُعرف بـ"الكلّجيّة" أي ماخور العاصمة الذي كان مصرّحاً به ويعملُ تحت رعاية صحيّة طيلة الفترة قبل ثورة تموز وإن اسم "الكلّجية" هذا كما يقول المؤرخون هو اسمٌ لِصنفٍ من العساكر في العهد المغولي أقاموا في هذا المكان عند غزوهم بغداد ومن هنا جاءت هذه التسمية الشائعة في بغداد فقط لمثل هذه الأحياء. يبدو أن قصّة هذه التسمية الدارجة العراقيّة معقّدة ولكنها مشبعة بالرموز والدلالات لأن العراقيين ما زالوا يستخدمون حتى اليوم كلمة "كَلّة" أي رأس ولا نعرف إن كان تركياً أو سواه، فنقول "ضَربَهُ كَلّة" أي ضربَهُ برأسه وكذلك في لعبة كرة القدم، نسمي ضربة الرأس "ضربة كلّة" وكذلك نستعمل كلمة "جيّة" لتحديد المكان فنقول "العربنجيّة" أي مكان العربات و"القندرجية" أي مكان القنادر أي الأحذية.. أقول هذا لأن كلمة "الكلّة – جيّة" تعني مكان الرؤوس أي أن هذا الحي الذي سكنته عساكر العهد المغولي كان المكان الذي تُرمى فيه رؤوس الضحايا... البشرية أو الحيوانية... أو كلاهما؟ أيُّ حيّ غريب الأطوار هذا؟ أيّةُ "كَلّة – جيّة" هذه وأيُّ ماضٍ لهذهِ المدينة يصلنا مباشرة بالحاضر؟

بين حارة العسكر ورمي رؤوس الضحايا في بغداد الأمس وحارة المبغى في بغداد اليوم ينتشر جسدُ بغداد عاصمةً أسطوريّة لا مثيل لها إلاّ

في حكايات ألف ليلة وليلة التي خرجت من رحمها هي.. ترى هل كانت تلك الحكايات الخرافية عن ألف ليلة وليلة هي كذلك بالفعل أم أن لها ظلالاً في الواقع وقد أُضيفت لها بعض المبالغات بمرور الزمن وتراكم الأدب الشفاهي المحكيّ كما يحصل دائماً مثل ما جرى في الملحمة الهلاليّة على سبيل المثال وما حصل لـ"الإلياذة" و"الأوديسّة"؟

إن المتعمق في تأريخ بغداد يميل إلى أن يُصدِّق هذا الخيال الواقع أو هذا الواقع الخيال، لأنه لا دخان من دون نار وليس إعتباطاً أو محض صُدفة أن تخرج ألف ليلة وليلة من بغداد، لأن بغداد تنتمي إليها وهي بدورها تنتمي إلى بغداد.

• • •

جرى تنظيم هذا المكان كمبغى رسمي مع دخول الاستعمار البريطاني واستمر مع النظام الملكي ولكن سقوط الملكيّة ومجيء النظام الجمهوري أغلق أبواب الماخور وطرد بائعات الهوى من جحوره فغابت عن الوجود تلك الحارة الغريبة بشخوصها، بعاهراتها وقوّاديها وزبائنها وسكاراها وإختفت تماماً من بغداد كحيّ مستقل بذاته. ولكن ماذا حصل؟ هل توقفتْ عن العمل أقدمُ مهنُ البشرية؟ وهل امّحت من العاصمة العراقية نساءُ ذلك الحي وأشياؤه ومتعُه؟ العكسُ من ذلك تماماً؛ لقد إنتشرت نساء الحي في كل الأحياء وصِرنَ في بيوتاتٍ هنا وهناك

حسب مستوى الحي ونوعه وذهبت أخريات يطفن في بيوت العزّاب وأحياء الطلاّب خاصة في المباني العموديّة في وسط العاصمة، في شارع الرشيد بالذات والسعدون والبتّاوين..

وهكذا أصبحت الشقق في بغداد منذ تلك الأيام غير مُحبّذةً للسكن من قبل العوائل، إذ لا يُحب العراقيون حتى الفقراء منهم السكنَ في شقة وقد يفضلون كوخاً صغيراً من الصفيح ولكن في مساحة مستقلة من الأرض ولا يستبدلونه بغرفة في بناية عمودية. ولهذا إتسعت بغداد أفقيّاً وصار قطرها أكثر من ستين كيلومتراً أي أوسع ثلاث مرّات من قطر مدينة باريس الذي لا يتجاوز العشرين كيلومتراً.

يضاف إلى هذا النزوع عند العراقيين للسكن في بيوتات مستقلة ما صار يعرف عن "الشقق" من سمعة سيّئة إذ صار الشباب وخاصة المتمكن منهم يسعى إلى إيجار شقة في عمارة وسط المدينة لا للعيش فيها ولا للعمل بل لقضاء سهرة مع مومسة وليلة سكر مع أصدقاء وسمّار وحتى كان البعض من ذوي الدخل المحدود من الطلاب يشتركون في استئجار غرفة في أحد هذه الأحياء لكي يستطيعوا تلبية نداء الجسد الذي لا يرحم في تلك السنوات الغضّة من العمر وحيث أن العاصمة بغداد بدأت تنفتح عليالحياة والعلاقات الاجتماعية ولو بشكل محدود.

• • •

يساراً جهةَ النهر ما زال يربضُ مبنى وزارة الدفاع التي عرفناها أيام عبدالكريم قاسم لِما كان للجيش من هيبة وحضور في الحياة الاجتماعية، وكان في نفس الوقت رمزاً لسقوط النظام الملكي وانتقال السلطة إلى "الشعب" هكذا كان العراقيون يحلمون وهكذا بدأت أولى صفحات الحياة "الجمهورية" بعد سقوط الملكيّة الدامي. في وزارة الدفاع كان يسكن عبدالكريم قاسم في جناح متواضع عاش ومات فيه أعزباً. أي أنه كان يشغل بضعةَ أمتار مُربّعة داخل هذا المكان فقط لا غير.. لا يمكننا تأمل هذا المكان دون المقارنة مع قصور صدام حسين التي تجاوز عددها المئات والتي تحتل أهم المواقع من شمال العراق إلى جنوبه ناهيك عن المساحات والبساتين التي تطوقها والأثاث الذي تحتويه والذهب والمعادن الثمينة التي تتوزع في مرافقها حتى المراحيض.

حاولت وزارة الثقافة العراقية بعد سقوط صدام حسين وبالتعاون مع منظمة اليونسكو أن تحول هذه القصور إلى مراكز ثقافية وصالات عروض ولقاءات فكرية وفنيّة وكنت يومذاك أعمل في منظمة اليونسكو فأعددنا ما يلزم من خطط وإتصالات وكانت الفكرة رائعة وقد تحمّس لها الكثير داخل العراق ومن العاملين في المنظمة الدولية..

لم يتحقق شيءٌ من هذا كعادة المشاريع في العراق الجديد بسبب تدهور الأمن وإختفاء الكفاءات داخل أجهزة السلطة، فقد كان وزير

الثقافة في تلك الأيام ضابط شرطة وبالطبع فإن مثل هذه الأفكار يَصعَبُ إنضباطُها وفقاً لأسلوب عمل الجندرمة ولهذا توقف هذا المشروع، مثل الكثير من المشاريع الثقافية الهامّة سواه، وظل حبراً على ورق.. وليت الأشياء في العراق تبقى حبراً على ورق بل سرعان ما يصير الحبرُ دماً ويظل ينز ويتدفق من المئات بل الآلاف من أجساد الأبرياء لِيصير الورق بدوره أرقاً وسهراً.. لا رقاد ولا ضجعة ومن هنا إقترحت في مقال كتبتهُ يوماً تغيير المقولة الشهيرة ولو، في العراق، لتُصبح "دمٌ على أرق"

في هذه المنطقة بالذات تقع ما يسمّى بـ "مدينة الطب" وهي أكبر مستشفيات العاصمة التي تضم العديد من المستوصفات ومراكز العلاج منتشرةً في شبه قرية على ضفاف دجلة.

وأنا في الطريق إليها وقعت عيناي على مصطبة خشبيةٍ مُتآكلةٍ، صورتُها ما زالت مطبوعةً في الذاكرة منذ أكثر من أربعين عاماً قفزتْ إلى ذهني فجأة هيئتُها الأولى التي رأيتها فيها. كانت ركناً يجلس عنده "باعة الدم" أولئك البؤساء الذين يأتون إلى هذا المكان لبيع دمائهم مقابل حفنة من الدينارات وهم معروفون للممرضين والعاملين في مدينة المستشفى وكل منهم يحمل كارتاً فيه معلومات عن نوع دمه وهكذا يأتي بين الفينة والفينة الممرض المسؤول وينادي بنوع الدم وليس بالاسم فيتقافز ذوو هذا النوع المطلوب ويتدافعون وهو يختارُ من بينهم الأقلَّ شُحوباً أو

الذي لم يُحالفه الحظ في المرّات السابقة بُغيةَ الانصاف، ويعد الآخرين بأن المرضى كثرٌ والحاجةُ تتعاظمُ لبضاعتِهم ولن يخشوا كسادَ دمهِم.. يذهبُ الشخص الذي وقع عليه الاختيار والابتسامة تعلو وجهه راكضاً وراء الممرض أما الآخرون الذين لم يحالفهم الحظ فيعودون يرتمون على المصطبة بخيبة أمل قد تطول.

أمامهم يوجد بائع "التكة والفشافيش" وتعني بالعراقية قطع الكلى والقلوب والرئات للغنم والأبقار وكذلك اللحم المقطع بشكل صغير وقد نصب على دكّةٍ قرب الرصيف قطعةً بطولِ متر مما يعرف بالدارجة العراقية "الشيلمان" أي نوع من القوالب الحديدية المجوّفة والتي تستخدم في البناء، يوضع في داخلها الفحم الذي يظل يحرّك فوقه "المهفّة" وتعني المروحة اليدوية، حتى يظل الجمرُ أحمر على الدوام ووجهه يقطر عرقاً في حر الصيف اللاهب في بغداد..

بائع التكة والفشافيش هذا يعيش بدوره على بائعي الدم الذين يعودون إليه فوراً بعد أن يبيعوا لتراً أو أكثر حسب الحاجة وحسب طاقة الشخص وهو يحضر لهم وجباتهم قبل أن يطلبوا ذلك فهو يعرف حاجتهم من ناحية وفي نفس الوقت فإن طاقتهم الشرائية ستكون قوية على العكس من طاقة أجسادهم التي تبيع نزيفها بالألتار، ولهذا فهم عندما يعودون يكون الطبق جاهزاً.

هو يعرف أيضاً أن قطع اللحم يجب أن تكون طريّة وفيها الدم على العكس مما يحبّذ العراقيون عادةً فهم لا يأكلون الشواء إلاّ بعد أن يكتمل نضجُه ويجف فيه الدم، وإذا ما بدتْ قطعة اللحم "مُدمّاةً" فإن غالبية العراقيين ترفضها وتعتبر ذلك أمراً يثير الاشمئزاز..

كم فاجأني، عندما رأيت في لبنان المطاعم والزبائن تتهافت على الوجبات النيّة من اللحوم في ما يسمى "بالكبّة نية" وهي أنواع. وأكثر من هذا ما يسمى بـ "السودا" وهي الكبد التي تؤكل طريّةً. ليت بائعي الدم من العراقيين يعرفون هذه العادة وأن تناولها ممكن وشهي، لأنهم يلجأون فور إفراغ عيّنات من دمائهم إلى تناول قطعة من اللحم لم يزل فيها ولو قليل من الدم..

• • •

قريةُ أو مدينة الطب تبدو خلف هذا المشهد ومن ورائها النهر يواصل جريانه بعد أن جفت عروقه هو الآخر مثل عروق هؤلاء البؤساء الذين يصطفّون هنا منذ ساعات الفجر الأولى..

أعرف أن وطناً كاملاً ظل ينزف مع دم هؤلاء كلّ يوم وليس وجه بغداد اليوم بأكثر نضارة من ملامح هؤلاء الرجال الذين اصطكت أسنانهم والتصقت جلودُ وجوههم بالفكّين وغارت العيون في سراديب

لا نهاية لها.. فلو توغلتَ في أعماق تلك المحاجر وما تحتوي من مآسٍ يوميّة لقرأتَ في حياة هؤلاء ما لا يمكن حتى مقاومةُ سماعِهِ أو استطاعةُ تصوّره دون أن يُحدثَ ذلك هزّةً فيك أو يُهدّم في قناعاتك ومبادئك وعواطفك جدراناً ومتاريسَ تَتذرعُ بها، ثقافوياً تارةً وانهزامياً أخرى..

إحدى مباني مدينة الطب هذه أعرفها فقد زرتها يوماً للقاء صديق كان يعمل متدرباً كطبيب في سنوات الدراسة الأخيرة من كلية الطب التي تقع متاخمةً للمدينة.

كنت أخرج من "قاووش" – ردهة – إلى ممر ومنه إلى آخر تتقاطع أمامي صور المرضى بكل الحالات والأشكال وكانت المرّة الأولى في حياتي أدخل فيها إلى مستشفىً.. ما زالت الروائح التي شممتُها ذلك اليوم في الذاكرة أحسُّ بها الآن خاصة وأنا على مقربة من المكان نفسه فقد عادت بقوة ونفحاتها ما زالت هي هي قائمة مثل جدران المبنى تأتيني من مرافقه وممراته. يومَها ما كدت أصل إلى غرفة صديقي الطبيب إلاّ وقد أوشكتُ على السقوط مغمياً عليّ بعد أن شحُبَ وجهي وصرتُ أتصبب عرقاً ففاجئه منظري وانفجر بالضحك صارخاً بي؛ هل جئتَ لتتعالج، "هاي شنو راح أعيل بيك الآن"

قلتُ له إنك تمارس مهنةً لن أقترب منها لو مُتُّ جوعاً.. وبعد أن سقاني فنجان قهوة وكأس ماء صار يحدّثني بشيء أكثر تسلية وهو يردُّ على تصريحي

"الخطير" بأنني لن أعمل في هذا الميدان ولو كان الموت ينتظرني.

مضت برهة وقد صار يسرد لي بعض الحكايات عن المرضى وعن قصصهم والغرائب بين الأزواج والنساء وما يتعرَّضنَ له تارةً من ضرب مُبرِّح وأخرى من إهمال شديد بحيث لا يأتي الأزواج بنسائهم إلى المستشفى إلاّ وقد قاربنَ شفيرَ الهاوية وخاصة من بين أبناء الأحياء الفقيرة المنتشرة في ضواحي بغداد، لدرجة أنه يوماً كاد يصفع أحد الأزواج لأنه أتى بزوجته بعد فوات الأوان وكان بالإمكان تدارك ما أصابها لو جاءَ بها في وقتٍ مبكر..علماً بأن المسألة ليست مادية كما يمكن أن يَتصور البعض لأن الطب في هذه المدينة على الأقل مجاني تتحمله الدولة مئة بالمئة في تلك الفترة.

وفي غمرة هذه الدردشات حضرت سيّدةٌ محجبة من رأسها حتى أخمص قدميها ترتدي "الشيلة" - وهي الفوطة التقليدية الريفية للمرأة العراقية - عمرُها لا يتجاوز الأربعينات كما تظهر ومعها فتاة مراهقة تبدو وكأنها إبنتها..

كان المشهد مضطرباً وبدا على المرأة الكبيرة نوع من الحرج والارتباك أمام الطبيب وأمامي وقد فَضَّلتْ أن تعرضَ مشكلتها أمامه فطلبَ مني الخروجَ لدقائق وأجلسني في مكان لا أرى فيه ما رأيت وأنا آتٍ إليه.

بقيتُ في قاعة إنتظار أحسب الدقائق وأنا أقاوم الروائح التي لا

يمكن حجبُها و"سديات" حمّالات المرضى وما إلى ذلك..

لم تطل إقامتي في هذه الحجرة حتى جاءني ليطلب مني أن أتركه لبضع ساعات يعود بها للقائي في مقهى خارج المستشفى وقبل أن أغادر المكان رافقني إلى الباب وكان بي فضول أن أعرف ما جرى. نظرت إلى عينيه فقرأتُ فيهما إبتسامةً غريبة، قلت ماذا؟ أجابني: شيء غير معقول.. أيُّ مجتمعٍ نعيش؟ قلت ماذا. قال: هل تُصدِّق أن هذه الفتاة المسكينة جاءت بها أمها إلى المستشفى لأنها وضعت بين فخذيها مُوزةً مُقشرةً صَغيرةً وانزلقتْ أبعد مما كانت تتصور في داخلها ولم تستطع إخراجها.

بين الضحك والأسى تركتُه لمهمته الشاقة الغريبة الأطور إذ لا أتصور أن مثل هذه الحالات كان قد درسها أو تدرب عليها خلال الست سنوات الأولى من دراسة الطب ولا أدري، حتى هو لا يدري هل سينجح في مهمة إخراج الموز هذه..

عرفتُ من بعد أنه أنقد الفتاة من هذه الورطة.. أنقذها طبيّاً ولكن هل أُنقذتْ إجتماعيّاً؟ هل ظلّت على قيد الحياة؟ هل إستطاعت أمها إخفاء سرّها "الغريب والخطير هذا؟ وهل تواطأت معها فعلاً أم أنها فضحت سرّها لأب أو لأخ أو لإمرأة هي بدورها أشاعت الخبر لتكون النهايةُ المفجعةُ ما ينتظر تلك الفتاة البريئة التي لم تستطع مقاومة الحرمان الجنسي وبكثير من الجهل ومن الخوف والرعب وقعت في هذه المأساة..

لا أعرف الجواب ولا هو ولا أحد.. ظل هذا المشهد محفوراً في الذاكرة وأنا أمام المكان بعد أربعة عقود والنساءُ تُذبحُ لأقلَّ من هذا والمرأةُ العراقية تتراجعُ عن دورها وحُضورها وإشعاعها الخمسيني والستيني..

• • •

هذا الصديق نفسه كان أيضاً سبب مشهد رهيب في حياتي لا يفارقني بالأخص هذه الأيام في بغداد الدمويّة، ذلك أنني رافقته يوماً في درس التشريح إلى مشرحة كلية الطب وهناك، يا للهول رأيت الأجساد البشرية والرؤوس والجماجم والأذرع والأعضاءُ كلها عيّناتٌ تحت مشارط الطلبة وهم يمارسون ذلك باعتيادية، يتحدثون عن كل شيء وربما عن ما سيأكلون أو ما سيشربون بعد الانتهاء من هذا "الدرس موعدٌ غرامي، نكتة، نقاش سياسي كلها تدور بين الأجساد البشرية المقطّعة والأطراف والأحشاء المترامية على الطاولات..

لم أشفَ من هذا المشهد حتى اليوم، وقد استعدته في ذاكرتي أمام الأخبار المصورة تارة والمحكية أخرى للذبح الذي صار ممارسة شائعة وحتى مبتذلة هنا في العراق في كل مكان في الشرق والغرب والجنوب والشمال والوسط، وبين كل الفئات والطوائف وكأنهم جميعاً التقوا تحت

خيمة هذا "الطقس الجنوني سادرين في هستيريا لا حدَّ ولا اسم لها.. أجل في كل مرّة أسائل نفسي كيف يمكن، كيف يستطيع رجل ما أن يذبح رجلاً آخر، هكذا مثل خروف أو مثل دجاجة ولا أطيق أنا النظر إلى رقبة عصفور تُقطع؟!

لقد صاروا يَتفننون بذلك وقد قرأتُ في الطائرة إلى بغداد خَبراً نشرتهُ إحدى الصحف اللبنانية مفادُه أن أحد المعتقلين في قضيّة اغتيال رفيق الحريري وهو سعوديّ الجنسيّة قد إعترف أنه كان على علاقة مع شخص كان يعمل وسيطاً "تجارياً" لأبي مصعب الزرقاوي مُهمّتُه شراءُ سُيوفٍ من أحد الحدّادين الماهرين في مكان ما في لبنان لِيحمِلَها إلى مجزرة أبي مصعب الذي كان بحاجة ماسة إلى مثل هذه السيوف البتّارة.

أكثر من هذا ذكرتْ الصحف العراقية والعربيّة وحتى أن الانترنت أشاع صوراً للذبح لا يمكن النظر إليها فقد كانت بعض المشاهد تُظهر القتلَ بالمحفار الكهربائي وأخرى يتم فيها الذبحُ بقطعة صفيح مدببة الجوانب رغبةً وتمتعاً بإثارة أقصى درجاتِ الألم.. والرعب!

ولكي أذهبَ إلى آخر هذا المشهد الذبائحيّ هو ما حدّثني به أحدُهم وقد رآه بعينهِ على شاشة الانترنت عندما كان الذابحُ يضعُ رُكبةً فوق ظَهرِ الذبيح، يتحلّقُ حولَهُ رفاقُهُ في مزاح وضحك وهو يطلبُ منهم أن يُولّعوا له سيجارةً في فمه لأنَّ يديه ما تزالان منشغلتين بالذبح..

لا لا ليس هذا عراقنا، هؤلاء ليسوا بغرباءَ فقط عن العراق بل عن الجنس البشري قاطبةً. إنهم جنسٌ من الغيلان التي ظَهرتْ فجأة هكذا بعد أن كَبُرتْ ونَمتْ في الغياهب والظلمات تماماً مثل تنانينَ خُرافيّةً جاءت من وراء الحجُب والسراديب، لم ترَ النورَ يوماً، لم تعرفْ شمساً مشرقةً ولم تتنفسُ رائحةً لزهرة، لم تذقْ الخُبز ولا فهمت معناه، لم تنطقْ بكلمةٍ مُفيدة ولم تعرف معنى أنها بشر ولم ترتبط مع أحد بعلاقة إنسانية ما حتى ولا علاقة كُرهٍ أو حقدٍ فالكُره هو ضدَّ الحب والحقدُ هو الوجهُ الآخر للمحبّة ومن يعرف أحدهما يكونُ بالضرورة قد عرفَ الآخر.. لأنَّ هؤلاء لم يعرفوا كل هذا، ولدوا وكبروا واستأذبوا وهم في غَيهبٍ وعَتَمة ما بعدهما عَتَمة، ليست هي فقط مجرد عتمة الضوء ولا عتمة الآخرين ولا عتمة الفكرة ولا اللغة إنه عالم كل ما فيه ظلامٌ وموات.. فهُم لا ينطقونَ إلاّ دماً ولا ينظرونَ إلاّ جِراحاً ولا يُنشدون إلاّ عدماً.

• • •

أَخرجُ من هول "مدينة الطب" هذا لأتجه شمالاً صوب منطقة الأعظميّة وقد سمّيت كذلك تَيمّناً بـ الإمام أبو حنيفة المعظم الذي دُفن فيها وهو أحد أكبر علماء السنّة النبويّة ولهذا فهو حيّ تقطُنُهُ غالبيّةٌ من السنّة..

هذه التفاصيل ذات الشأن الطائفي لم أكن أعرفها تلك الأيام، بالطبع كانت هناك ثمة أصداء لهذا، لم نكن نجهل ذلك كليّاً ولكننا كنا ندير ظهرنا بدون تردد لمثل هذه الأصداء والحكايات التي كنا نَتَنَدَّرُ عندما نسمعُها.

على أي حال لا بد من مواصلة السير في هذا اليوم البغدادي بامتياز فقد تجاوزتُ ساعة الظهيرة وأنا في ساحة الميدان في باب المعظم ولا بد من الاتجاه إلى الأعظميّة هناك حيث "ساحة عنتر" الشهيرة التي كانت أيام الستّينات ملتقى الشباب والنزهةِ وقتَ غُروب الشمس حيث الجو في بغداد يبدأُ بالبرودة قليلاً ليصبح في الليل ساحراً ومَشُوباً بالانداء وكان الشارع الطويل الذي يربط "ساحة عنتر" بـ "جسر الأئمة" كما يسمى يَغصُّ في تلك الأمسيات بالمتجولين والمتجولات يتقاطعون، يتهامسون أحياناً أو يكتفونَ فقط بالنظرات فقد كانت هذه اللغة الخجولة في تلك الأيام سائدة، وما كان يجرُؤ على الالتقاء علناً أو السير يداً بيد إلاّ الندرةُ من العُشّاق أو يكون ذلك مؤشراً أنهم مخطوبون أو متزوجون وفي هذا يمكنهم بالطبع ممارسة هذه الحريّة "الإباحيّة" إلى حدّ ما في بغداد تلك الأيام.

لا يمكن تصور ساحة عنتر هذه بدون التمثال المعدني للفارس الشاعر عنتر بن شداد الذي أقامه الفنان العراقي الراحل ميران السعدي

فقد إختار أسلوباً حديثاً في نحت هذه الشخصيّة التراثية القديمة وقدّم لنا الفارس والفرس ملتحمينَ تارةً مشطورينَ أخرى وسيفُ عنتر متجه إلى السماء.. كان منظر التمثال بالنسبة لنا مدعاةً للدعابة والتفكُّه ولا ينفك أحدنا من ذكر طريفة أو تعليق عنه حتى يواصل الآخر بقهقهات عميقة تدمع لها الأعين..

هذه الساحة وقد إقتربتُ منها كان هزّني على البعد مرآها المدجج بالعجلات العسكرية والدبابات التي غطت هياكلَها بأغصان الأشجار في حين بدت الساحةُ - الحديقةُ السابقةُ عاريةً تماماً عن أيّةٍ ورقة خضراء! لقد إنتقلتْ هذه الخضرةُ والأكمامُ والزهراتُ الصغيرة التي كانت منتشرةً بالأمس على حوافي الساحة إلى ظهور الدبابات وعلى أبراج مقصورات الحراس وعلى قامات وخُوذِ الجنود أيضاً..

يا له من مشهد، من تحول، فالأغصانُ يبُستْ على مساندها العسكرية وظلّت في شكلها المشتبك الغريب وعلى الأرض في وسط الساحة لا شيء غير ركامٍ وبقايا متناثرة تحت أقدام فرس البطل العربي الذي صار أسطورة "عنتر ابن شدّاد" وأنا أردّدُ في نفسي بيته الرائع يحادثُ حصانه:

"لو كان يدري ما المحاورةُ إشتكى

ولكانَ لو علمَ الكلامَ مُكلّمي"..

أيةُ محاورة هذه يا عنترُ.. ماذا ستقولُ لفرسكَ وماذا سنقول لبعض؟ ها هي أعناقُ الدبابات الأميركية تشرئبُّ نحو الأحياء والشوارع والمارّة، وها هم الجنود يستجوبون حتّى الطيور العابرة من شجرة إلى شجرة، يُفتّشونَ حتى خلايا الجسم ويسألونَ عن كل شيء كان أو لم يكن..

أية محاورة يا عنتر وقد إنهار الوطن مثل كثيب رمل هائل تحت أقدام الارهاب والبرابرة الآتين من الخارج ومن الداخل بمواكبة الزحف والغزو الذي صبغَ وجه الأشياء والنوافذَ ووجوهَ العابرين وعيونَ الأطفال وفساتينَ النساء، صبغَ كل شيء حتى لون الخبز والأزهار باللون الكاكي.

ماذا ستُنشد وماذا سأحفظ والنشيدُ الوحيد الذي تَضرّجَ به فم كل عراقي اليومَ هو "آهٍ يا بلادي"

إنها المرّة الوحيدة في حياتي التي أرى فيها عاصمة مُحتلّةً، وقد شاءت الظروف أن تكون عاصمتي. لكن هذا الاحتلال الغريب الأطوار ما زال يثير في أعماقي الكثير من التساؤلات؛ هل هو مجرد إحتلال وهذه القوات هل هي فقط قوات غاصبة يجب مقاومتُها وطردُها؟ في الواقع – وتلك هي المفارقة الكبيرة – أننا لا يمكن أن نَصِفَها بهذا الشكل لأن العراقيين، غالبيةَ العراقيين الذين صوّتوا، لأول مرّة في حياتهم، بحمايتها، وكل السياسيين دون استثناء لا يرغبون في مغادرتها "فوراً" وتخلّيها عن

العراق الآن وهو في هذا الظرف والصراع الذي سيتحول بالتأكيد إلى حرب أهلية ضروس لا تُبقي ولا تَذر.. ثم هل جاءتْ هذه القوّات بمحضِ إرادتها؟ أم أن مُمثلي أهم الأحزاب السياسيةِ والدينيّة العراقيّة استنجدت بها واستحثتها بكل الوسائل أن تدخل لتُسقطَ نظام صدام حسين الذي لولا التدخل العسكري الأمريكي لتأبّد في حكم العراق كما يجمع غالبية العراقيين والمراقبين السياسيين.

واليوم أينَ وصلتْ المسيرة الديمقراطية التي بدأت في العراق بالفعل؟ وهل يمكن التوقفُ في منتصف الطريق؟ ولمصلحة أي نظام جديد سيأتي؟ تلك هي المعضلة؟ إن تطورَ العنف الطائفي وانفجارَه في العراق قد حَرَف كلَّ شيء عن مجراه وهو يُهدّدُ اليوم الهويّة العميقة للعراق تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً.

لا أعرف عراقيّاً واحداً لا يحلُم بخروج هذه القوّات يوماً ولكنني لم أسمع من العراقيين مَنْ يطالبُ بخروجها فوراً إلاّ من أولئك الذين يحملون السلاح لقتل العراقيين قبل الأميركان وإلاّ بعض الأقليّات السياسيّة التي ما زال خطابُها ملتبساً وغير واضح تجاه مستقبل العراق الديمقراطي.

ما زلتُ أتذكرُ في الأيام الأولى لعودتي إلى العراق عام ٢٠٠٣ الكثير من العراقيين من بين الأصدقاء والعوائل التي التقيتُها قادماً من باريس

وهم يتساءلون: لماذا يدافع جاك شيراك عن صدّام إلى هذا الحد؟ لماذا يعارض دخول الأميركان لإسقاطه؟ كان الناسُ في غالبيّتهم لا يفكّرون إلاّ بشيء واحد؛ هو نهايةُ طغمةِ صدام حسين أيًّا كان الثمن.. وها هم اليوم يدفعون أعلى الأثمان وما زالوا ولكنهم في غالبيّتهم، وبالرغم من كل الويلات التي أحدثتها الفَوضى وانعدامِ الأمن والخدمات، ما زالوا أقول في غالبيتهم لا يفكرون قط في عودة نظام الطاغية أو ما يشبهُهُ وأياً كانت نتيجة العملية السياسيّة الجارية اليوم فإنهم لن يرضوا بغير الحرية والديمقراطية بديلاً أيّاً كانت القوى والطوائف السياسية التي ستحكم.. هذا هو الانجاز الذي تحقّقَ دون شك، فهذه القناعة باتت هي الأرضُ الجديدة التي يحيا فوقها كل عراقي مهما كان إنتماؤهُ ومهما كانت طائفتهُ، مسلماً، مسيحياً، علمانياً أو سواه.

• • •

والآن لا بد من مواصلة السير في هذا الشارع الذي كان صُورةً غَضّةً لسنواتٍ حَفرت في الذاكرة مواطئَ لن يغمرها أيُّ مدّ، ولن تتوغل فيها أيةُ موجةٍ سوداء ولن تَمحوها أيةُ سلطة في الوجود.

كنّا هنا قادمين من "الكاظمية" حيث أسكنُ عبر الجسر الذي كان من أقدم جسور العاصمة منذ بغداد العباسيّة هذا الجسر الذي ذاع صيتُه

في الحادثة المشؤومة عام ٢٠٠٥ عندما انهارَ سُورُه الحديدي تحت ضغط مئات الآلاف من العابرين ليتساقطوا بالآلاف ويموتوا غرقاً وسحقاً.

هذا الجسر العباسيّ بالأصل، عندما كان لوائح خشب محمولةً على قوارب، أخذ اسمَهُ من الإمامين الراقدين على ضفّتيه "جسر الأئمة"، الإمام المعظم أبو حنيفة في جهة الأعظمية وقد أعطى اسمَهُ لهذا الحي والإمام موسى الكاظم في الكاظمية وقد أعطى هو الآخر اسمَهُ للحيّ الذي يرقدُ فيه.

وكما أن الأعظمية يسكنها في غالبيتها القصوى السنّة فإن الكاظميّة يسكنها في غالبيّتها القصوى الشيعة.. هكذا بكل تلقائية نقول، حَوَّلَ ضريح الإمام المعظم إمامُ السنة الحي الذي يُدفن فيه إلى منطقةٍ لا يسكنها إلا السُنّة وذلك منذ أكثر من ألف عام تماماً كما فعل الإمام موسى الكاظم إمام الشيعة الذي حوّلَ مرقدُه المدينةَ إلى مكان لا يسكنه إلاّ الشيعة منذ أكثر من ألف عام فكلاهما عاشا عصراً واحداً ومنذُ ذلك الحين ودجلةُ يفطرُ المدينةَ إلى طائفتين عَرِفا في التأريخ القديم الكثير من الاضطرابات والصدامات ولكن العراقُ المعاصر كان قد إجتازَ إلى حد كبير ذلك الماضي وتلكَ النعرات، وقد كان يُقال بأن هذا الجسر في الكثير من الفترات لم يكن يجرؤ أحد على عبوره بالاتجاه المعاكس خشيةَ ألا يعود.

تلك أيام كنّا نسمعُ عنها ولا نتوقف والدليل أننا كنّا نقضي أوقاتاً

ممتعةً في الأعظمية قادمين من الكاظمية ولم أسمع يوماً في تلك السنوات الستينيّة أي إشارة أو رمز أو كلمة تُوحي بتمييزٍ طائفي. لقد حقق العراق بالفعل في تلك السنوات "إختراقاً" علمانياً حضارياً لو تواصل اليوم لكانَ عبر بنا كُلَّ هذه الكوارث وقد صار العراق على عتبة الدول الكبيرة والمزدهرة..

لا وقت للندم ولا جدوى، المهم إنني أعبر هذا الجسر الآن، هنا حيث منذ ألف ومائتين وثلاثين عاماً تقريباً تُركت جثةُ الإمام موسى الكاظم ملفوفةً بسجّادةٍ بعد "تصفيته" كما نقول اليوم من قبل الخليفة العباسي يومذاك. هذا الجسر الذي شهد في ذكرى وفاة الإمام الكاظم قبل عامين قيامةً حقيقيّة فقد تدافعت الآلاف من أبناء الشيعة الفقراء الذين يعيشون في جهة الرصافة قادمين من مدينة الصدر وسواها من الأحياء الشيعيّة البائسة، قادمين راجلين مشياً على الأقدام، هكذا يفهم الشيعة العراقيون أن المجيء إلى زيارة الأئمة مع تحمُّل أكبر قدر من المعاناة والمكابدة هو الأسلوب الأمثل لاسترضاء الإمام ولاكتمال الزيارة بمعنى التضحية وليس مجرد "النزهة" والقدوم بالسيّارة على مهل وفي راحة تامة..

كنت أعرف شيئاً عن هذا في تلك السنوات ولكنه كان مقتصراً على أهالي قرية قريبة من كربلاء اسمها "طويريج" فقد كان تقليداً محصوراً على أهل هذه القرية في ذكرى ليلة عاشوراء، العاشر من شهر محرم، وهو

يوم مقتل الإمام الحسين بن علي، يقوم بموجبه كل أهالي القرية بالسير على الأقدام ترافقهم الرايات الخضراء والسوداء والصيحات والنادبون واللطّامون – مِن لَطَمَ – وضاربو الزناجيل الحديدية على الظهور بعد أن يقطّعوا مربّعاً من قماشٍ في ظهرِ الدشاديش التي يلبسون إمعاناً في الألم وهكذا سيراً ولطماً وبكاءً وصراخاً يصلون بعدَ مسيرةٍ قرابة أربعينَ كيلومتراً إلى كربلاء ليطوفوا بالضريح، يلتقون هناك مع الملايين القادمة من أرجاء العراق، وكانت الوفود كلها تأتي بالسيّارات الكبيرة أو بالشاحنات المخصصة للرمل وللطابوق والتمور، يملأونها بالنساء والرجال والأطفال حتى كربلاء.. لم يكن يختصّ من بين الوفود القادمة إلى كربلاء إلاّ أهالي طويريج بهذا الامتياز الذي يحسدهُم عليه الشيعة القادمون من الأحياء والمدن البعيدة لأن في ذلك أجْراً أعظم كما قلنا..

أقول كانت هذه الممارسة موقوفة على أهالي طويريج ولكنها اليوم، بعد سقوط صدّام حسين الذي كان يمنع كل أشكال الطقوس، قد صارت مشاعة لكل الشيعة من المدن البعيدة والقريبة، فصرنا نرى أيام الزيارات الإماميّة المتعددة طوال العام بتعدد الأئمة، إثني عشر إماماً من ميلادٍ ووفاة.. كل هذه الأيام تمضي ألوف السائرين في تظاهرات مشياً على الأقدام بين بغداد وكربلاء والمسافة قرابة ٢٠٠ كيلومتر يُعسكرون خلالها في الحقول يَذبحونَ ويطبخون ينامون الليل ويواصلون السير.

وقد رأيت بنفسي هذا المشهد يوماً وكان بين "المشّايين" رجلٌ بلا ساقين يجلس على صفيحة خشبيّة تحتها عجلات صغيرة يدفع بيديه اسفلت الشارع وهو "يمشي" هكذا بين الجموع.

لقد منحت الحريّة والسلطة، التي استعاد الشيعة جزءاً كبيراً منها بعد سقوط صدام، هؤلاءَ العراقيين فرصةً تأريخيّة للتعويض عن سنواتِ مَنْعِهِم من مُمارسة هذا الطقس العاشوري الذي يريدون عبره التكفير عن الخطيئة الكبرى التي ارتكبوها في "خيانة" الحسين بن علي الذي جاء إليهم هنا بعد وعد تقديم العون له والسير لمحاربة الخلافة الأموية ولكنهم خذلوه وتركوه ضحيّة لجيش أموي قويّ قضى على كل أبناء النبي محمد من سلالة فاطمة ولم ينجُ إلاّ ابنُه زين العابدين الصغير الذي من سلالته خرج الأئمة الاثنا عشر الذين هم عصب المذهب الشيعي في العراق والذي يعرف أيضاً بالمذهب الاثني عشري أو الجعفري نسبة إلى جعفر الصادق.

بعودة الحرية والسلطة إلى الشيعة في العراق تحوّلت كل مدن العراق الشيعيّة القريبة من كربلاء إلى "طويريج" ولم تعد تلك القرية تحتفظ بامتيازها..

في ذلك اليوم المشؤوم من تأريخ بغداد العبّاسية وبغداد المعاصرة معاً إزدحم الجسرُ بأعداد خياليّة من "الزوّار" أطفالاً ونساءً وشيوخاً

ورجالاً طوفانٌ بشريٌّ صاخبٌ يرتجُّ فوق أكتاف هذا الجسر وكان أعداءُ الشيعة من الارهابيّين المتربصين بهؤلاء البؤساء قد وجدوا في هذا اليوم مناسبة "مقدسة" بالنسبة لهم لإباحة دماء هؤلاء الأبرياء فقد بدأوا بتَسميم السندويشات والماء والعصائر التي يبيعونها لهم بأسعار رخيصة أو مجّاناً كما جرت العادة تبرعاً من أحد المحسنين الميسورين من "محبّي الإمام" ومن ثم أثاروا الرعب في أن مُفخخةً كبيرة إنفجرتْ أو ستنفجرُ فوق الجسر فكانت الشرارة التي حولّت الجموع الغفيرة إلى قُنبلةٍ بشرية إنفجرت دماً وتساقطت أشلاءً من أعلى الجسر إلى النهر..

غرقتْ المئاتُ وداست الجموعُ المئاتِ وتسممتْ مئاتٌ أخرى وطاف في النهر ركامٌ قرمزي، غِرينٌ بشري يصلحُ لإخصاب الأرض والسماء معاً بأنواع من الزرع والنخيل والأعشاب التي لا تراها العين ولكنها تنمو في فيافي وسهول ومرتفعات الذات العراقيّة قائمةً هكذا مثل غابات أسطوريّة تشكل الجغرافية والتضاريس الأعمق في خارطة الكيان العراقي.

• • •

عبرتُ جسرَ الأئمة هذا من الأعظمية باتجاه الكاظميّة وكأنني أرى بأم عيني آلاف الأجساد تتساقط وتطفو فوق النهر.

تستقبلك وأنت تدخل "الكاظميّة" على يمين الجسر المكتبة الوطنيّة للمدينة، مكاني المفضل أيام الدراسة الثانويّة وقد بدتْ لي كما بدت بغداد وكأنها تغورُ في بئر زمانيّ مكانيّ تحاول بصعوبة أن تحتفظ بجدرانها وشبابيكها.. أنظر إليها، أحدقُ في الجسد النحيل للطفل الذي كنتُه والذي تعلّمَ هنا عِشقَ الكتاب، كانتْ مَعبدي الكبير وأنا أتهجّى الكلماتِ الأولى وأجلسُ بذهول وخُشوع أمام المقاعد الخشبيّة اللماعة، حولي تنتشرُ الرفوفُ بالكتب المرقمة.. آفاقٌ ومنارات، رحلاتٌ ومدنٌ، شخصيّاتٌ وعوالمُ، شعرٌ وملاحمُ.. كان أمينُ المكتبة عجوزاً – كما جرت العادة – أبيضَ الشعر يغورُ في كرسيّه وهو يقرأ والصمت المطبق على الجميع يعطي للمكان رهبةً وروعة..

على الجدران أتعرّفُ على صورة سقراط تحتها أقرأ: "إعرف نفسك بنفسك" كنتُ أقرأُها وأعيدُ الكَرّةَ ولم أفهمها إلاّ بعد أربعين عاماً.. فهمتُ ما يقصدُ منها سقراط ربما ولكن لم أفهم نفسي بعد.. صور شوبنهاور والكندي والفارابي وابن سينا وهيجل كُلُّها مع بعض.. لم نكُن نُفرّق بين إبن سينا وهيجل كان صوت الحضارة الانسانية واحداً، إنها المغامرةُ البشرية التي نطفو في نهرها منذ بدء الخليقة. لم نكن نفرّق بين فكر غربي وشرقي فكلّه غذاء وكلّه عطاء ولم نكن نخاف من معنى ولا من فكرة ولا من فلسفة فهي التمارين الأولى التي كنّا نمارسها لنبدأ لعبة الحياة والأشياء..

لم يعترض أحد على صورة شوبنهاور ولا على هيبة هيجل التي تبدو من لحيته البيضاء الطويلة.. كانت الصور تتشابه لهؤلاء العظام بين سقراط وهيجل، بين الفارابي وشوبنهاور، الفرق الوحيد الذي يمكن إلتقاطه أن كل الشخصيات العربية الإسلاميّة كانت تظهر في الصورة بعمائم بيضاء أو سوداء أما الشخصيات الغربية فكانت حاسرة الرأس إمّا صلعاء أو كثّة الشعر.

كذلك كان الزي مختلفاً بين الصدريّة وبين الجُبّة. كُلُّ هذا لم يكن يلفُتُ إنتباهي في تلك الأيام وما هذه الفروقات الظاهرية إلاّ من وحي هذه اللحظات التي أقف فيها أمام المكتبة الآن لأتذكر مَنْ وما فيها.. يومذاك لم أكن حتى أتساءلُ عن معنى الاختلاف عندما يتعلق الأمرُ بالفكر والفلسفة والشعر والفن والموسيقى. لم نكن لا نبحث ولا نسعى ولا نتوقف عند معاني الاختلاف، كُنا نلحظُها وقد نَميلُ إلى فكرة أكثر من أخرى ولكننا ننظر بنفس عين الاحترام والذهول أمام الأفكار جميعاً. كنّا نعتقدُ دون أن يُعلّمنا أحد بشكل مباشر أن الفكر الانساني العظيم هو واحدٌ وأن عمالقةَ الانسانية مهما إختلفتْ مصادرهم ومنابعهم هم تراثنا جميعاً وبنفس القدر كما في هذه المكتبة الصغيرة، كنا نقضي ساعات بين الكتب تحت أعين سقراط وهيجل وابن سينا وسواهم.. أجل هكذا كانت الانطلاقة الأولى في تلك السنوات التي لم أكن أتجاوز فيها الخامسة عشر عاماً.

إن الصراع السياسي الداخلي أولاً ومن ثم الصراع بين الدول العظمى والدول الصغيرة، ومفهوم الاستعمار ونهب الثروات وما إلى ذلك من فكر سياسي وممارسات سياسيّة مُدانة ولا إنسانية كل هذا هو الذي فجر في الأذهان حلقات الصراع بين الأوطان الصغيرة والدول العظمى كما يقال وأخيراً شق الكرة الأرضية بين مَشرق ومغرب. أمّا فيما يتعلق بالفكر والفن والابداع بكل صوره، فقد كانت هذه المناطق غير قابلة للتأثر بفكرة الصراع وأقل منها بالحروب والدماء.

أقول إنه طغيان المفهوم السياسي وقيمه وأساليبه على المبادئ والمفاهيم والرؤية التي تحملها الأفكار والفلسفات كبحث إنساني صرف. لا يمكن أن نختلف مع مفكر أو شاعر أو رسام كما نختلف مع سياسي أو عسكري أو مسؤول دبلوماسي في دولة عظمى. الإختلاف في الشعر والفكر والفن لا يمكن إلاّ أن يكون إثراءً وتعميقاً للعطاء الانساني ليس فيه أية أضرار وإرتدادات سلبيّة، أما الإختلاف السياسي فمن الممكن أن يكون تدميريّاً دمويّاً. ولهذا فإن الغلبة للسياسيّ على الفكري والابداعي هي التي صَبَغتْ تطور الدول والمجتمعات في عموم القرن المنصرم بسحنة العدائية والكراهيّة الطاغية.. لقد تمادت هذه الفكرة التي تنطوي على تسطيح وتهميش للروح الانساني وظلاله وأعماقه بكل ثرائها، وأصبحت هي المقياس والمرجع.

بالطبع هذا التطور لم يكن سمةً في العراق وحده بل أخذ فيه شكلاً دموياً لا مثيل له ما زالت فصوله تتوالى اليوم على مرأى ومسمع الكرة الأرضيّة جمعاء.

أتذكر الآن ما قاله لي صاموئيل بيكت في لقاء كان لي معه قبل وفاته عام ١٩٨٨ في باريس وكنت قد سألته عن السياسة ودورها في الحياة الاجتماعية وموقفه منها كأديب يُوصف بأنه "عبثي" أجابني: "لا يمكن اليوم أن تقول صباح الخير دون سياسة" حتى هذه الدرجة تسيّس العالم وأكثر مظاهر هذا التسييس مأساوية ودمويّة تجري اليوم في العراق. وقد جاءت العقود الأخيرة من القرن المنصرم على الحياة الفكرية والابداعية في العراق مثل النار في الهشيم ليسحقَ نظامُ صدام حسين كُلَّ إختلاف حتى وإن كان ظليلاً وثانويّاً.. ليقتلَ كُلَّ من لا يُؤمنُ به، ليُشوهَ كُلَّ ملامح الثقافةِ التي لا تَروقُ له، ليعمِّقَ الهوّةَ بين الشرق والغرب انطلاقاً من مغامراته العسكرية الدامية في حروب وإحتلال دمّرتْ الشعوبَ والثرواتِ وكل مظاهر الحياة والغنى في العراق وجيرانه من الدول الصديقة والشقيقة.

كانت الوقفة هذه أمام المكتبة أكثر تأثيراً فيَّ وأعمقَ خُشوعاً من وقفةِ مُؤمنٍ أمام رمز ديني.. كان كل كياني يترجل ليقفَ عاريَ القدمين كما كنت أحياناً أفعل بعد أن أكون قد مشيت بضعةَ كيلومترات وملأ التراب

نعالي، ولا أجرؤ على الدخول به إلى هذا الحرم فكنت أخلعهُ وأغسله في الحديقة أمام المدخل وأجففه لأدخل به إلى حرم المكتبة.

• • •

خلفها تمتدُ بساتينُ النخيل، أروع ما شاهدتْ عيناي من حدائق وغابات.. ونحن نسمي غابات النخيل بساتين وكلمة غابة لا نُطلقها في العراق إلاّ على المساحات المشجّرة بكل أنواع الأشجار غير المثمرة كالصفصاف والكالبتوز وغيرها.

أما المساحات الكبيرة من الأشجار المثمرة كالنخل والرمّان والفواكه بكل أنواعها فنسمّيها بساتين وحقول.

وبساتين النخيل تنتشر وسط بغداد، مثل واحات ساحرة بين كُتل المباني والجدران والاسمنت. كما تنتشرُ الواحات وسط الرمال والقفار.

البساتين هنا هي ما بقي من نخيل بعد أن هجمت المدينة على حقول النخيل والفواكه وبدأت تتوسع وظلّت تتناقص مساحاتها مثل برك خضراء تجف تحت شمس الاسمنت والحديد والقار. لكنها ما زالت اليوم منتشرةً هنا وهناك بأعداد لا بأس بها بالقياس إلى مدن العالم لا بالقياس إلى العراق، إذ يمكن اعتبارُ أعدادِها الآن بالنسبة للعراقيين ليست بذات شأن ولكنها بالنسبة للعواصم العربية والأجنبية التي

تشتريها نخلةً نخلةً وتزرعها في مدنها نخلةً نخلةً، بالنسبة لهذه العواصم فإن نخيل بغداد كثيرة وكثيفة ولكنني أنا الذي كنت أعرفها قبل نصف قرن ما زلت أذكر كيف أصبحت اليوم عندما أنظر إليها وكأنها تصحَرُّ شيئاً فشيئاً.

على أي حال لم أر أروعَ من منظر النخيل وسط بغداد.. هذا المشهد كأنه يخرج من ملاحم سومر ومن شواطئ إنبثقت للتو من الطوفان صورةً للأرض تملأ صدرها الباسقاتُ من الأشجار تلك التي تكون عليّةً وأغصانُها من رموش العين كما تقول الأغنية السومرية..

أجل هذه الساحرة التي خرجت من أساطير سومر ما زالت تحتفظُ ببهائها واعتدادها ورفعتها ونوعٍ من الجمال ليس أرضيّاً فقط وكأنما له سمة سماويّة تجعله يرقى ويسمو على سواه. خرجتْ هذه النخلة من "كُحل" أميرٍ سومري سرقَهُ الغرابُ ليبذِرَهُ في أرض بين نهرين.. وهكذا وُلِدتْ سيدةُ الشجرات التي لم تعرف الأرض ولا السماء مثيلاً لها من قبل، شجرة أغصانُها من رموش وجذعُها قامة إمرأة عالية، وتَمرُها أحلى من الشهد.

رأيت النخيل في كثير من مدن العالم لكنّي لم أر أجمل منها في بغداد.. ليس إحساساً شوفينيّاً ما أقول لأن منظرها على شواطئ دجلة وتحت سماء مرصّعة بنجوم وكأنها تجثو فوقها إلى جانب البيوت التي لا تجرؤ أن ترفع

قامات جدرانها أعلى من أعذاقِها، كل هذا يمنح النخلة في بغداد سحراً خاصاً وهي هنا أيضاً شجرة مثمرة وليست فقط للزينة كما هو الحال في بيروت وسواها من المدن التي تتزين بها فقط فأنت عندما تنظر إلى النخلة بأعذاقُها وقد تدلّت من الأعالي مليئةً بالتمر بكل الألوان الأخضر والأصفر والأحمر وكأنها قلائد سحرية لسيّدة ظلّت طوال القرون فتيّة وعالية، لا ترى فيها نفس الجمال والبهاء عندما تكون بدون أعذاق.

• • •

هذه البساتين كنت أقضي ساعات طويلة تحت نخيلها لا حبّاً وتأملاً فقط لمنظر النخلة ولكن لأنها المكان الأفضل للعديد من الطلاب الذي يفضلون مراجعة دروسهم أيام الامتحانات بعيداً عن البيوت حيث لا يمكن القراءة فالعوائل والأهل والاستقبالات لا تدع مجالاً للمذاكرة ولا يمكن حتى وأنت في غرفتك المغلقة مقاومة الاجتماعات العائلية والجيران والأصدقاء الذين يتزاورون باستمرار بين البيوت.

وهكذا يهرع الأبناء إلى البساتين أو بعض المقاهي المخصصة لذلك وكنت أفضل الأولى لما فيها من هواء طلق ومسافاتٍ أستطيع أن أقطعها روحة وإياباً للمذاكرة في مراجعة مادة الامتحان.

ولا أنسى ذلك المساء وقت الغروب وأنا أطوي كتبي عائداً إلى المنزل

أن لَفَتتْ نظري خلف إحدى النخلات حركة غير طبيعيّة وإذا بي أمام رجل يضاجع أتاناً بعد أن شدّها إلى النخلة بحبل مكين..

لم يأبه حتى لمواجهتي له فقد ظل منهمكاً في ممارسة "فعل الحب" هذا وأنا لم أتمالك نفسي إذ صرت أحث الخطى بعيداً دون أن ألتفت إليه خشية أن أُفسدَ عليه هذه اللحظات..

أجل المجتمع العراقي كان قاسياً والعلاقات بين المرأة والرجل كانت شكلاً من المحرّمات إلاّ فيما يَسمحُ به العُرف والدينُ أي في حدود الخطوبة والزواج، الأمر الذي دفع بالرجال والشباب على الأخص إلى كل أنواع الشذوذ والعلاقات الغريبة من هذا النوع أو العلاقات المثليّة بين الرجال والرجال والنساء والنساء، كل هذا كان مغطىً تارة وعلنيّاً أخرى حتى علاقات السحاق النسائية أحياناً كانت "مقبولة" أو "ممكن إطاقتها" كما ظهر ذلك في العديد من الدراسات عن المجتمع والعلاقات في تلك المرحلة.

أما اليوم فأين وصل كل هذا التحفظ وكل هذه القيود والرعب الذي كان يحيط بالعلاقات بين الجنسين؟ إن القهر السياسي والاجتماعي لنظام صدام حسين طيلة أربعة عقود من السنين ترافقه ثلاثة عشر عاماً من الحصار والتفكُّك العائلي والاجتماعي والفقر والعوز الذي وصل حد المجاعة التي لم يُصرّح بها والتي كانت مقنّعةً بما يسمى بالحصص

التموينيّة التي لولاها لماتت الملايين جوعاً خلال سنوات الحصار، كل هذا الاختناق اليومي والذي شمل كل مرافق الحياة بالإضافة إلى الاستباحة العلنيّة التي كان صدام حسين ورجال حكمه إبتداءً بأبنائه الاثنين يمارسونها بحق النساء اللواتي صرن يخشين الخروج إلى الشارع، كُلُّ هذه الأسباب وسواها قادت طبقةً متزايدة من النساء في العراق إلى ممارسة مختلف أنواع البغاء سرّاً وعلناً بما فيها الزيجات من الرجال الأثرياء المسنيّن بالرغم من كونهم متزوجين بأكثر من امرأة وهو أُسلوبٌ لجأتْ إليه العوائل الفقيرة التي دفعت ببناتها إلى زيجات من هذا النوع.

بلغ تدهور هذا الوضع الأخلاقي ذُروتَه في أواخر أيام صدام حسين عندما صارت مجاميعٌ من النساء يهربنَ إلى الخارج للدعارة والبغاء وكان صدام حسين قد حاول ردع هذه الظاهرة التي فضحتْ سلطته من زاوية غير متوقعة فقام باطلاق أحكام الاعدام ضد العاهرات والقوّادات والنساء اللواتي يلجأن إلى بيع أنفسهن لقاء المال وقد نفذ بالفعل أبشع الجرائم في ذبح العديد من النساء وتعليق رؤوسهن أمام بيوتهن في العديد من الأحياء.

هكذا عاش المجتمع العراقي بين حالات قصوى من التطرف والقمع تارة والاستباحة أخرى وفي جميع الحالات كان الشباب رجالاً ونساءً هم الضحيّة التي تستهدفها كل هذه الممارسات. ظل هذا الجانب

في التدهور الأخلاقي الخطير والغير معروف إلى حدٍّ ما صورةً لأبشع مآسي نظام صدام حسين بعد أن غطت جرائمه السياسية والاقتصادية على صورة حكمه. في الواقع إن تحطيم صدام حسين للبُنية العائلية والاخلاقية لطائفة كبيرة من المجتمع العراقي يُعدّ أخطر الموروثات التي يعاني منها العراقيون اليوم فقد هشم العائلة واستباحَ كل المحرّمات وداس على كرامة هذا الشعب الذي إن لم يمت فقد خرج بجراح عميقة وويلات ما زلنا لم نعرف بعد عمقها وتأثيرها على الشخصيّة العراقية.

في حضن هذه البساتين أقام صدّام حسين في السبعينات سجناً رهيباً لا يخرج منه المعتقلون إلاّ جثثاً. وقد قَضَتْ المئات بل الآلاف في سراديبه شنقاً وتعذيباً بمختلف أنواع القتل وطرق الموت البطيء والسريع التي كان يتلذّذُ بمرآها وهو يطوف بالسجون وصالات التعذيب التي كان يعود دائماً لمشاهدتها.. كانت هذه رياضة من طراز خاص يتدرب فيها هذا الغول على أقسى مشاهد العذاب الانساني ليتمرس أكثر بدم وعذابات الشعب.

يا لها من عدالة تلك التي أرادتْ أن يُعدمَ صدام حسين في هذا السجن بالذات.. أجل في المكان الذي شنقَ فيه الآلافَ من ضحاياه هناك أُقتيدَ صدام حسين وهناك شُنق كما شهدَ هذا كلُّ العالم.. وبعيداً عن إختيار اليوم الخطأ والأسلوب الخطأ في تنفيذ هذا القصاص الذي

أُعترِضَ عليه أَنَّهُ كان يومَ عيد وأن أفراداً أطلقوا صيحاتٍ وشعارات تُسيء حتى لضحاياه. أقول أن كل هذه الأخطاء لم تكن لتُنسيَ العراقينَ الذين كانوا بدمِهم وبأظافرهم وأسنانهم وصيحاتِهم وصمتِهم ينتظرونَ سنيناً طويلة ومريرةً هذا القصاص.. وبالفعل كان القصاص وكانت الساعة. هي تلكَ الساعةُ عندما رأى وذاقَ صدام نفس لحظةِ الموت التي كان يُذيقها لضحاياه.. كان لا بد من هذه اللحظة لتستريح أنفاسُ الملايين الذين لو لم يتم إعدام صدام ولم يروا ذلك بأعينهم لتفجرَ الشارع ولسالت دماء أكثر مما تسيل اليوم.

يقول العراقيون "النارُ تحرقُ أقدام واطئها" أي لا يعرف معنى حكم صدام حسين وويلاتَه وجُنونَه الدموي إلاّ ضحاياهُ من العراقيين ولهذا لن يفهمَ هذا القصاص بعُمقه ودلالاتِه النفسية والاجتماعية الواعية وغير الواعية إلاّ العراقيون.. لأن ضحاياه لم تكن إلاّ من العراقيين وفي السنوات الأخيرة لم ينجِ الكويتيّون من ناره ومذابحه ولذلك كانوا أكثر تفهماً من بين الأشقّاء العرب، أما الحرب العراقية الايرانية فويلاتٌ من نوعٍ آخر وموتٍ مجاني لأكثر من مليون قتيل من الجانبين.. لا مجالَ لذكرها الآن وقد قيلَ فيها الكثير..

لا يمكن أن ينسى العراقيون صُورةَ المقبرة الجماعية في مدينة الحَلّة والتي يتّسعُ حجمُها لملعبِ كرةِ قدم وهي ملأى تغصّ بالجثث الصغيرة

والكبيرة.. حَشدٌ من العظام والجماجم والدشاديش والأحذية والأصابع والأطراف شكل لطوفان عدمي بشري عنوانه صدام حسين..

إنه لهذا السبب بالذات يتحملُ العراقيون اليومَ كُلَّ أشكال العذابات اليومية وقلة الأمن والمفخخات في كل مكان لأنهم لا يريدون ولا بأي ثمن العودة إلى تلك الأيام التي لا يعرف مدى مآسيها وذروة عذاباتها إلاّ العراقيون.

تأملتُ هذا المكان ولم أجرؤ على الدخول إليه ولكنني متأكد أنه في السنوات القادمة سيكون نصباً لحرية شعب بكامله وموعداً يتصالح فيه العراقي مع ماضيه ومع نفسه ومع أشقائه العراقيين من كل الطوائف والأعراق.. لأن صدام هذا ذبح الجميع بدون استثناء وكانت ضحاياه من كل طوائف المجتمع ولو أن الغالبية منهم كانت بالطبع من الشيعة والأكراد.

• • •

دجلة في الكاظمية يجري تحت الجسر وكأَنَّ شيئاً لم يكن. لقد مَحَتْ الضفافُ آثارَ الدم وغسلت موجاتُ النهر الأعشابَ البرية والشجيرات من بقايا الكارثة. يواصل النهر جريانه، لا أسرع ولا أبطأ، بنفس الخطوات ونفس الإيقاع فهو يبقى كذلك حتى ساعة الانفجار، ساعة

الفيضان وهو بدونها يظل يجري دون أن تحس به. تلك هي طبيعة النهر.. الهدوء والسكينة إلاّ ساعة الانقضاض على الضفة.. إذ لا رحمة..

كانت نزهتي اليوميّة تقريباً بمحاذاة كورنيش النهر في الكاظميّة، هذه النزهة التي أتذكرها في بيروت كل مرّة أذهب في نزهتي على الكورنيش بين الرملة البيضاء وعِين المريسة مروراً بالروشة.. الفرق كبير ومتعدد الأوجه، أهمها الفرق بين المشي بمحاذاة النهر والمشي بمحاذاة البحر فالمعاني التي تتدفق من الإمتداد اللانهائي للبحر تختلف بل تتناقض مع المعاني التي تواكب مجرى النهر المحدد الأطراف والمصب.

البحر مفتوح على المالانهاية والنهرُ مسوّر بالضفاف. البحرُ رحيلٌ دائم والنهرُ عبورٌ إلى الضفّة.. البحرُ يصخبُ ويرتدُّ داخل شواطئه يواصل لعبة المد والجزر فوق الصخور والشواطئ الرمليّة أما النهر فيمضي إلى المصب مغمض العينين..

وهكذا فإن أبناء المدن التي تعيش على الأنهار يختلفون في تكوينهم الداخلي والنفسي الواعي واللاواعي عن أولئك الذين يعيشون على شواطئ البحار.. فأبناء الشواطئ البحرية أكثر إنفتاحاً على العالم وهكذا هي لغة الموانئ وحب السفر الدائم على العكس من أبناء المدن النهرية الذين يبدون أكثر إرتياباً وخوفاً من الاغتراب والأسفار..

إن مثل هذه المعادلة في تأثير التضاريس على السلوك البشري قائمة

ولا تنحصر بالبحر والنهر فنحن نعرف نظرية المستشرق الانكليزي مارجليوت الذي يرى أن العقلية الصحراوية مرتبطة بالمناخ المتطرف للصحراء فهو حار جداً في الصباح والنهار بارد جداً في الليل والفجر وهكذا فهو إنتقال بين قطبين متناقضين ولا تدرّجَ بينهما وهكذا يصدرُ إلى القول بأن سلوك أبناء الصحراء يرتد بين القبول والرفض بين الغضب والرضى بالعواطف الجيّاشة في كلا الحالتين ولا وسط بينهما ويذهب إلى أبعد من ذلك ليقول بأن هذا التناقض والتضاد وغيابُ التدرج لا يسمح لهم بالتفكير العلمي المنهجي ولهذا فهم يظلّون أقرب إلى العواطف منهم إلى التحليل والبناء وبهذا المعنى يمكن أن تجد بينهم شعراء لا علماء، مُغنّينَ لا مُوسيقيين. وبعيداً عن مناقشة هذه النظرية فإن لم تصح كليّاً وإن لم نتمكن من تعميمها فإنها على الأقل تعكس بعض الصفات المعروفة لدى سكان الصحراء وطريقتهم في العيش والعلاقات الانسانية إلى درجة معيّنة من الصحة.

في الواقع هذه العلاقة بين التضاريس والعقلية البشرية وطبيعة الحياة للأقوام التي تعيش فيها تبدو أيضاً للمراقب الذي ينظر إلى طبيعة الحكم السياسي في منطقتنا أنها أيضاً تلقي ضوءاً على فهم الخارطة السياسيّة في هذا المكان من العالم.

هل هو محض صدفة أن لا تظهر الديكتاتوريات إلاّ في مناطق

السهول والأنهار المنبسطة التي لا يوجد فيها لا قمم ولا مغاور ولا كهوف ولا مخابئ بحيث يمكن السيطرة عليها بسهولة بممارسة القوة.. هكذا فإن السهول والأنهار والأراضي الممتدة التي تتكون منها بلدان مثل العراق ومصر قد أفرزت أكبر الديكتاوريات منذ الفراعنة وحتى يومنا هذا في العراق..

على العكس من ذلك تكون الجبال حصوناً طبيعية لسكّانها ولا تخضع بسهولة لسلطة القوة المركزيّة فتظل بعيدة عن الهيمنة وتظهر فيها سلطات صغيرة آنيّة تتجدّد باستمرار كما حصل في كردستان العراق وجبال لبنان وجبال إيران وأفغانستان.

ليست هذه قوانين ولا نظريات صارمة إنما هي تساؤلات تَملأ الذهن الآن وأنا أعود إلى بغداد قادماً من بيروت أعود إلى النهر قادماً من البحر لا يمكن إلاّ أن يكون للطبيعة وتضاريسها أثرٌ على الكيان الإنساني والاجتماعي.. وإذا كانت الأبراج والكواكب كما يؤكد لنا أغلبُ المختصين الفلكيين تُؤثر في سلوك الانسان وأن دورة القمر تؤثر في نفسيّة المرأة وجسدِها فكيف لا تؤثر الطبيعة المحيطة بنا نحن الذين نعيش داخلها مثل الأسماك داخل المحيط؟

كان كورنيش دجلة في الكاظميّة هذا اليوم خالياً والرصيف مهشّماً وقد ظهرت التربة محفورة بعد أن أُقتُلِعَ من فوقها الحجر الذي كان يغطي

الجادّة.. النهرُ هو الآخر لا يشبه النهر فقد بدا هزيلاً كأنه ينسلُّ غير ملتفتٍ وغير آبه بشيء حتى بِمظهرِهِ الذي يدعو للعطف..

هذا النهر لم يكن بهذه الهيئة يوماً.. أعرفه كان يعلو الضفاف يتهددها أحياناً وفي كل يوم يخطف عدداً من الغرقى.. المراكب والصيّادون كانوا يلقون بشباكهم مُنتشين فتتعالى أصواتُهم وأغانيهم يروحون ويجيئون إلى الضفاف تحت أنظار المتجولين الذين يعرفونهم بالأسماء ويحادثونهم وهم وسط النهر.

حتى البيوت المواجهة للنهر التي كانت تبدو مزهوّة بالجيرانيوم الأحمر على سياج الحدائق أو بأزهار الفل والجوري وكانت النباتات المتسلقة تلون الجدران بأخضرَ ورقيٍّ يميل مع الريح.. هذه البيوت بدت وكأنها وجهٌ بعينين مفقوءتين، بجُدران سقطَ طلاؤها من الرطوبة أو الاهمال. أبوابُها علاها الصدأ ونوافذُها لا تُفتح قط وكنّا نرى الجالسين وسط الصالات من الخارج.. واليوم أنظر إلى هذه "الفيلاّت" وكأنها غير مسكونة إلاّ بالأشباح ولا أجرؤ حتى على التأكد من ذلك.

• • •

كُنت أفكر في زيارة بيت أخي في منطقة "حي العامل" في بغداد ويقع في طريق المطار. سألتُ سائقَ السيّارة عن إمكانية الذهاب إلى هناك

فأجابني بأن الطريق غير مأمونة وأن هناك خطر ولذلك فهو لا ينصحني بالذهاب. إتصلت بأخي على الهاتف وسألته عن الأمر فأجابني هو الآخر بأنه لا ينصحني لأنه هو نفسه محدود الحركة خاصة وأنني سأبدو كغريب يمكن أن ألفت النظر.

قلت له أنا أسكن في القادسيّة هل يمكنك المجيء أجابني أن الأمر هو الآخر معقد حيث أن المكان الذي أسكن فيه أنا محصّن وأن دخول "الأجانب" عن الحي وغير الساكنين فيه ينطوي على الكثير من التعقيدات الأمنيّة والانتظار لذلك فهو يفضل أن نفكر في إيجاد مكان ثالث في منطقة نوعاً ما آمنة داخل العاصمة..

هذا الحوار جرى بيني وبين أخي والمسافة التي تفصل حي العامل حيث يسكن عن حي القادسية حيث أقيم لا تتجاوز بضعة كيلومترات وكنّا في الزيارة الأولى نقطعها بـ خمسة إلى عشرة دقائق.

اليوم تقطعت بغداد إلى جزر صغيرة على أساسٍ طائفي حيث يُقتل أو يهجّر كل من يعيش في حي غالبيّته من الطائفة الأخرى إلاّ بعض الأحياء التي تمّت السيطرة عليها أمنيّاً إلى حد كبير والتي هي بالأصل أحياء إمّا برجوازية أو يسكن فيها الموظفون الكبار للدولة. "حي العامل على سبيل المثال الذي يسكنهُ أخي ما زال الصراع فيه لم يُحسم بين الطائفتين وهكذا فإن سكانه ما زالوا كالأسرى أو الرهائن مُحتجزين

فيه لا يمكنهم ممارسة حياتهم بشكل طبيعي.

هناك أحياء أخرى في العاصمة تعاني من وضع أسوأ وهي المناطق التي يملك الإرهابيّون فيها نفوذاً قوياً مسلّحاً مثل حي الدورة الذي صار في هذه الأيام مسرحاً للمواجهات المسلّحة حيث تقوم قوى الجيش العراقي تدعمها قوات أمريكيّة بتنظيف الحي من أوكار الإرهابيين ولهذا فإن شوارع هذه المنطقة صارت ساحاتٍ للقتال واقتُطعت أجزاءٌ منه سيطرت عليها قوات الدولة وأجزاء أخرى ظلت تحت سيطرة مسلحين من أطراف معادية. أرقام القتلى والجرحى تتقاطر على شاشات الأنباء.

إن مأساة بغداد هذه لا يمكن أن يتصور حجمها ومدى المعاناة التي تكابدها إلاّ أهل المدينة. إن منظر الشوارع التي تعترض في وسطها الحواجز الكونكريتية جعل صورة المدينة لا تشبه شيئاً متكاملاً متواصلاً ولا حتى يمكنك أن تمشي في الشارع مسافة أكثر من خمسين أو مائة متر دون أن تدخل في لولب كونكيرتي في آخره نقطة تفتيش تخرج منها لتدخل إلى ثالثة ومنها تقف أمام حاجز بارتفاع أربعة أمتار لا ترى من خلفه شيئاً إلا السماء..

وسط كل هذا التمزق والخوف من المجهول يرافقه إنقطاع الكهرباء الدائم يومياً تفاجئني بغداد بأنها ما زالت تواصل شكلاً من المقاومة العميقة، ليس عبر السلاح ولكن عبر الإصرار على ممارسة دورها الثقافي

من خلال ندوات ولقاءات بين مثقفين ومعارض وحفلات موسيقى ومهرجانات شعرية يحضرها أناس كثيرون لا يردعهم في ممارسة حقهم هذا لا المسلحون ولا الطرقات المقطوعة ولا المفخخات.

فوجئت تلك الليلة في "معهد التقدم للسياسات الانمائية" الذي يديره صديقي الدكتور مهدي الحافظ أنْ حضرَ جمعٌ كبيرٌ قادم من كل أنحاء العاصمة بما فيها الأحياء الخطرة التي أشرتُ إليها وقد دار نقاش حول الأوضاع السياسيّة الراهنة وبدأ الوقتُ يمضي بسرعة إذ أن حدود منع التجول وصعوبة الانتقال لا تسمح بالتأخر ليلاً رغم استجابة الحضور ومواصلتهم النقاش الأمر الذي دفع أحدهم إلى القول: "إسمحوا لي أن أغادر فأنا أسكنُ في قندهار"

يطلق البغداديون هذا الإسم تَندّراً على ضاحية تقع جنوب غرب العاصمة وهي منطقة "الغزاليّة" التي يتواجد فيها إرهابيّو القاعدة والتي على ما يبدو في هذه الأيام الأخيرة إستطاعت قوى الجيش أن تحد من نفوذهم فيها بنسبة كبيرة الأمر الذي يفسّر مجيء بعض سكان هذه المنطقة إلى داخل بغداد والبقاء حتى الليل وهذا أمر لم يكن يحصل قبل شهور.

لا قندهار في بغداد ولا في كل العراق.. يدفع العراقيون الثمن باهظاً كل يوم دفاعاً عن الحرية وعن مجتمع خارج الوصاية والاحتلال. وهم يقدمون الآلاف من القرابين على مذبح الحياة الحرّة الكريمة.

في حفل الاستقبال الذي تلى الندوة في المعهد المذكور قدم لي موسيقيٌّ شاب نفسَه أنه المدير والخبير الفني لـ "أوركسترا السمفونية الوطنية العراقية" ودعاني إلى كونشيرتو موسيقي في "نادي الصيد" في بغداد. أعطاني برنامجاً موسيقياً لم أصدق وأنا أقرأ فصوله فهو يشتمل على الفعاليّات التالية:

١) جوهان شتراوس	فالس الدانوب الأزرق
٢) هانز كونتر مومر	سويت من الفلولكلور العراقي
٣) أنطونيو فيفالدي	نوبار عدنان – كمان أول
(الرباعي الوتري)	محمد عدنان – كمان ثاني
	آني اسكندر – كمان ثالث
	محمد ناصر – كمان رابع
	زيد عثمان – فيولا
	طارق ياسين – جلو
٤) جوهان سباستيان باخ	كونشيرتو براندنبورك
٥) آنتوني دوفورجاك	رقصات سلافية.

وفي ورقة الإعلان كتب:

"نرحب بكم في يوم آخر من أيام العطاء الفني للأوركسترا

السمفونية الوطنيّة العراقية. فالأوركسترا في جميع أنحاء العالم المتحضر تعتبرُ خُلاصةُ الرقي والتحضر الفني والاجتماعي"

أتذكر إبن خلدون في "المقدمة" في باب حديثه عن الموسيقى من أن إنحطاط الموسيقى هو مؤشر إنحطاط كل حضارة، لأنها ربما الشاشة الأعمق للذات الانسانية ومنها يبدأ الانهيار والسقوط وفيها تتجلى كل مؤشرات الرقي والتدني في آن.

على أي حال لم أكن أتوقع أن ألتقي فرقةَ أوركسترا في بغداد هذه الأيام وأكثرَ من هذا أن أُدعى إلى أمسية كونشيرتو سمفوني يعزفُ لباخ وشتراوس وفيفالدي.. في بغداد التي تنام وتستفيق على معزوفات من نوع آخر، كنت أحسبُ أن صيحاتِ الموت والانفجارات والطلقات وأصوات الانهدامات في الداخل والخارج هي التي تشكل وحدها إيقاع الحياة اليومية ولا شيء غيرها ولهذا فأنا أرى اليوم أن عراقاً خفيّاً لا تعرفُه وسائل الإعلام يواصل حياته متحدياً بكل ما يستطيع طوفانَ الموت والدمار هذا، ولا أحد يلتفت إليه.. ألا تستحق هذه الفرقة السمفونية التي تعمل في حطام بغداد تَحيّةً من محطات التلفزيون العربية التي تتسقّطُ كلَّ شاردةٍ وواردة عندما يتعلقُ الأمر بأخبار الإرهاب والموت والمواجهات العسكرية والإجتماعات الحزبيّة؟ ألا تستحق هذه الفرقة التي تُواصل نضالها من أجل البقاء بأرقى أشكال المقاومة وأكثرها رفعة

وإنسانية، أن يُشارَ إلى وجودها وتحيتها من قبل كل المؤسسات الإعلامية التلفزيونية والإذاعية؟ أليس من واجب المئات بل الآلاف من الصحفيين المرابطين في بغداد والذين يشعرون بالبطالة عندما يتوقف النزيف العراقي ولا يحدث ما يغذي شاشاتهم التي صارت تفضل الدم العراقي النازف على الدوام أقول أليس من واجبهم المهني على الأقل الإشارة إلى مثل هذه الظواهر في حياة المجتمع العراقي؟ أم تُرى أن الفن والابداع لا يعنيهم لذا فإن برامجهم وريبورتاجاتهم لا تصور إلاّ المجرمينَ والمسلحين والإرهابيين والسياسيين وضحاياهم في الحياة والمجتمع..

لا قطعاً.. لا فالعراق شيء آخر مهما إمتلأت شاشاتكم بجُثثِ البؤساء والفقراء والأبرياء من هذا الشعب فذلك لا يعني أننا لا نقدم إلى العالم إلاّ هذا الطبق الذي تفضلون..

إن العراق اليوم وبالرغم من أعتى الهجمات التي تستهدف أعمق ذرة في كيانه، يواصل دورته الدمويّة لجسد يعشق الحياة ويتنفس هواء الحريّة ويتجلّى في أرقى أشكال الابداع الفنيّ موسيقىً وشعراً ورقصاً ومسرحاً وسينما وكل هذه الفنون تُواصل دورتها والعراقيون يَؤمُون مرافقَها ونواديها، يدوسونَ فوق الألغام وفوقَ النار وفوقَ الأشلاء إيماناً بالحياة يحدوهم عشق الفن والإبداع ولا يأبهون بهذا التجاهل وهذا التكالب على مشهد الحياة الدامي الذي تفرضه عليهم الأحداث.

ألم يفاجِئ لاعبو كرة القدم العراقيون العالمَ أجمع بفوزهم بكأس آسيا هذا العام ولم يكن أحدٌ قد سمع بالفريق العراقي؟ لقد صار الكل يتساءل: أين تدرّبوا ومن أين جاؤوا بهذه المعنويات وهم تحت ركام المدينةِ والحياةُ في العراق ليس فيها ما يدعو للّعب أو للتسلية؟

هؤلاء الموسيقيّون، هذه الأوركسترا ربما ستفاجئ العالم أيضاً في أداء أو عَزفٍ يتفوّقُ في مكان ما وسيتساءل أيضاً الناس؛ كيف يمكن في عراق اليوم أن تُعزَفَ سمفونيّة وأن يحضرَ الناسُ لسماعها؟

هكذا يحصل مع الفنانين التشكيليين الذين تجاوزتْ أعدادُهم الآلاف فقد أخبرني سكرتير جمعية الفنانين العراقيين سابقاً قاسم سبتي صاحب واحد من أشهر غاليريات الفنون في بغداد عندما كنت أحضر قبل عامين معرضاً عن الفن العراقي المعاصر في منظمة اليونسكو أن أعضاء الجمعيّة المسجّلين لديه يتجاوز الثلاثة آلاف، وهؤلاء من الذين تنطبق عليهم شروط العضوية التي تفترض أن يكون الفنان قد تخرّج من معهد أو أكاديمية للفنون وأقام على الأقل معرضاً.. وكانت المشكلة كيف نختار ثلاثين فناناً تشكيلياً من بين ثلاثة آلاف؟

لكنه أيضاً حدّثني عن مأساة غريبة لبعضٍ منهم، أولئكَ الذين أصيبوا بالعمى بسبب عملهم في ظروف صعبة وعدم استطاعتهم لأسباب مادية العلاج وذكر لي أسماءَ مثل **رافع جاسم وياسين شاكر**

ومحمد حسين جودي وكلهم فنانون مرموقون.. لم أسمع في حياتي فناناً تشكيلياً أصيبَ بالعمى.. خاصة لأسباب من هذا النوع.. يذكرني هذا الأمر بالصمم المفاجئ لـ"بيتهوفن

أية مأساة هذه يواجهُها فنان تشكيلي مصاب بالعمى؟

يرسم العراقيون اليوم بكل ألوان المأساة وجهاً للإنسان سيظل محفوراً في الذاكرة البشرية لا نعرف مدى تأثيره على المدى القريب، لأننا فيه ومَن في وسط المعركة لا يرى أطرافها..

الشعراء والأدباء والصحفيون هُم أيضاً تضجُّ بهم دورة الحياة في العراق وهو يتدفق إبداعاً وأن مسيرة الخلق الفني فيه لن تتوقف ولم يستطع لا صدام حسين بكل بربريته وطغيانه أن يوقف عجلتها ولا المنافي أن تشتت خطواتها ولهذا فإن ينابيع الخلق الفني والأدبي ستبقى ثرّةً وسيبقى المبدعون العراقيون في هامشهم السحيق ولكن الخلاّق دائماً.

• • •

يهبط الليل فجأة في شتاء بغداد وصار لا بد من العودة إلى المنزل لأن ظروف الأمن تتطلب ذلك. وستبقى في القلب حسرةٌ أن نسهر على شواطئ دجلة.. تلك الشواطئ التي ماتت وكأنها حيوان إنقرض.

في الحديقة "المطلّة" على دجلة وأصر على الاحتفاظ بالقويسات لأنها

ليست مجرد قويسات فهي في الواقع أسيجة كونكريتيّة وعجلات ومدرعات عسكريّة وأبراج حراسة تلك التي تفصل بين حديقة البيت الذي أسكنُ وبين النهر بالرغم من أن المسافة لا تتجاوز العشرات من الأمتار.

أجل، النهرُ هناك.. وكان يمكن أن أتسلل إليه ليلاً ولكن هذه الأمتار القليلة التي تفصلني عن النهر تحتلها كل أشكال التخندق والتحصن العسكري بما في ذلك السيارات الخاطفة والبروجكترات ولهذا لا يمكنني القول أنني أسكن على مقربة من النهر.. لأنني لو قصدت مشاهدة النهر أو الاقتراب منه لتوجّبَ عليّ الالتفاف بضعة كيلومترات للوصول إلى منطقة نوعاً ما غير محروسة أستطيع عندها أن أرى النهر..

إن الجدران الخرسانية ترتفع بضعة أمتار وهي تلتف بشكل حلزوني إذ لا يمكنك تصور شكلها من الخارج إلاّ وأنت تنظر إليها من الأعلى أي من طائرة هيليوكوبتر وهي مصممة عسكرياً بهذا الشكل. على أي حال لم أحصِ في بغداد كل الحواجز والجدران الكونكريتيّة ولو أُحصِيتْ يوماً لَفاقَ عددُها كُلَّ أشجار النخيل.. إنها نخيل الموت، وشواهد المئات بل الآلاف من القتلى الذين لا شواهدَ لهم.. هؤلاء الذين تناثروا في الأثير وظلّوا في الهواء نتنفسّهم كل صباح.. هؤلاء ليست لهم قبور ولا شواهد ولذا أدعو أمانة العاصمة في العراق أن تضعَ أسماءَهم فوق صدور هذه الحواجز الكونكريتية لتكون هي الشواهد التي تحمل أسماءَهم.. وهي

حتى لو فعلت ذلك لما استطاعت أن تكون عادلة ومنصفة. فمن أين ستأتي بأسماء تلك الآلاف من الجثث التي يُعثر عليها "مجهولةً" حتى أن بعض العراقيين صار يُوشمُ في ساعده أو على جسده إسماً أو رقماً يدل عليه لأنه يعلم أن جثته ستصل ربما إلى المشرحة من دون رأس.

حدث شيء من هذا في الحروب العالمية وخاصة في الحرب العالمية الأولى عندما كان الجنود يُعلّقون في رقابهم صفائح معدنية تحمل أسماءهم تحسّباً أن يتعرّفوا عليهم عندما يعثرون على جثثهم ولكن اكتشاف القنابل والمدافع الثقيلة في تلك الحرب والتي كانت عندما تنفجر تقتلع أحياناً رؤوس الجنود بحيث صار عدد متزايد من الجنود القتلى مجهولي الهويّة لأن القلادة التي تحمل هويّاتهم كانت تسقط عندما تتطاير الرؤوس في الهواء.. الأمر الذي حدا بهذه الدول، من أجل أن تتجاوز هذه المأساة، أَنْ إبتكرتْ رمزاً لتخليد هؤلاء وهو ما عُرف فيما بعد بـ "الجندي المجهول" من هنا ولدت فكرة الجندي المجهول الذي صار تخليدُه في صرح يشكل تحيّة للوطن بكامله. واليوم ماذا سيفعل العراقيون بهؤلاء القتلى المجهولين الذين ليسوا بجنود ولا مسلحين ولا ميليشيا.. إنهم أبرياء ومدنيّون يخرجونهم من بيوتهم ليُذبَحوا كالخراف..

أيُّ نصبٍ سيُشيّدُه العراقُ لتخليد هؤلاء وهل سيُسمّيهم "الآلهة المجهولة" أم "الأبطال الأبرياء" أم "الوجوه الأخيرة"؟

تنتشر مأساة هذا البلد خارج كل منطق ولا يمكن إخضاعها لأي تأريخ ولا مقارنة، لا في ماضي الأحداث الانسانية ولا في حاضرها.. أما المستقبل فلا أجرؤ على التفكير به.

• • •

في الحديقة حيث صار الليل أكثر وأكثر حُندساً. بدأ قمرُ بغداد يتجلّى يرتفعُ فوق المدينة يعلو ويعلو غير مُلتفت وغير مكترث. هو هو كما رأيته قبل أربعة عقود، لم تكثر فوق بشرته النُدبُ ولا الخُدوشُ ولم يُضرّس بأنياب الموت والدمار التي يَطُل كل يوم فوقها. ظل قمرُ بغداد عليّاً خارجاً للتو من بين غيوم تبدو أكثر عجالة ولا تتلفتُ تاركة له ساحةَ اللانهاية حدوداً وحُضناً. سطوحُ المنازل البغدادية مضاجعُ الصيف في الليالي حيث يبردُ الهواء وحيث يحلو النوم تحت سقف السماء المرصع بعيون الجنيّات وخواتم العفاريت وحدقات الملائكة، نجوم بغداد التي لا تنام. هذه الساعة البغدادية لا تعرفُها الحواضرُ العربية وفيها يغسلُ ضوءُ القمر أَسرَّةَ المدنية بعد نهار لاهب تحت شمس بغداد العمودية التي تصهر حتى القار تحت أقدام المارّة والتي لا بد من حمل "الشمسيّة" لعبورها فالناسُ هنا لا يحملون "المطريّة" ضد المطر بل هي المظلة ذاتها ولكن ضد الشمس.

لكنهم هذه الأيام تخلّوا عن سمائهم هجروا النوم فوق السطوح ولم يعودوا يمارسون هذه العادة الساحرة التي تحول المدينة إلى مَصيف في طقس حُلمي يَشترك فيه الجميع، فالسماء هي هي للكُل ولا فرق بين سرير على الأرض في كوخ وبين سرير على سطح قصر عظيم، كلاهما ممدد مغطى بأديم السماء.. سماءٌ حانية على الجميع وقمر واحد يكفي الملايين..

صار الليل أعمق وأعمق وأنا كمن يرفض أن يؤوي لفراشه فقد كان هذا النهار عميقاً وطويلاً، كان نهاراً أفقيّاً إلى أقصى الآفاق وعموديّاً إلى أبعد نقطة بين الماضي والحاضر وكانت كلُّ خطوةٍ ألفَ خطوة وكل نظرة ألبومَ صور وكلُّ كلمة ترجُّها أصداءٌ كثيرة وتتقاطع فيها معانٍ ودلالات توشكُ على الاندثار.

دوي الهليوكوبترات التي تمر قريبة من سماء الحديقة وصرير الجُداجد يتبعها مكملاً الدورةَ تُمزّق سجّادة الصمت المطبق التي كنت أتمدّدُ فوقها.

تذكرت شاعراً عراقياً شابّاً إسمُه "عمر السراي" ذات يوم كان يقرأ قصيدة على شاشة التلفزيون يُخاطب فيها هذه الطائرات التي تخطف فوقي:

"يا إلهي رُشَّ لها الريش
كي تدّعي أنها قبّرات
هذه الطائرات..

• • •

قبل أن آوي إلى الفراش قلت في نفسي لأقرأ شيئاً من هذه الصحف المتراكمة أمامي لهذا اليوم الجمعة ٢٠٠٧/١٠/١٩ ماذا حصل فقد فاتني بسبب هذه الجولة وتداعياتها أن أطلع على الأخبار والصحف طيلة النهار فالصحف العراقية التي تكاثر عددها وتنوعت في الإخراج وفي الجودة وفي الرداءة كلها معاً تجتمع كل يوم على مائدتنا ولا بدّ من تصفحها؛

أقرأ في جريدة الصباح: "برلمانيون: الفيدرالية خيار مطروح وليست فرضاً ملزماً" و"إتفاق عشائر الجنوب والمنطقة الغربيّة نحو تعزيز الوحدة الوطنيّة" و"تسهيلات لدخول العراقيين إلى سوريا" "أهالي مدينة الصدر يشيّعون ضحايا القصف الأمريكي وقد استنكرتْ الكتلة الصدرية العملية وناشدت المالكي التدخل "الكربلائيون والأنباريّون إلتقوا في مضيف الشيخ أبو ريشة لتجسيد وحدة العراق" "٣ ترليونات دينار هي حصة المحافظات من برنامج تنمية الأقاليم" ثم بيان عن مؤتمر للمصالحة جنوب بغداد يفيد:

"المنطقة الدولية الخضراء، ٣١ شيخ عشيرة يمثلون مناطق جنوب بغداد تجمعوا في وسط مدينة بغداد لمدة أربعة أيام في مؤتمر للمصالحة وتوصلوا إلى إتفاق"

وفي "الدستور" العراقية لنفس اليوم أقرأ:

"الحكومة العراقية تسعى لإطلاق سراح جميع المعتقلين باستثناء المنتمين إلى تنظيم القاعدة" و"إستشهاد عشرة قتلى على الأقل في إنفجار مفخخة في منطقة الكرّادة ببغداد" و"أشاد القائد العام لقوات التحالف في العراق الجنرال ديفيد بترايوس بالجهود الحثيثة التي تبذلها السعودية لدعم الاستقرار في العراق ومكافحة الإرهاب مشيداً خصوصاً بتوجيهات الملك عبدالله بن عبدالعزيز الحثيثة بالتنسيق مع الجانب السوري لمنع المتسللين السعوديين عبر الأراضي السورية وإعادتهم مرّة أخرى إلى بلادهم" و"قوة أميركية تداهم مقر الحزب الاسلامي في بغداد" و"العثور على خمس جثث مجهولة الهويّة في بغداد وأشار المصدر إلى أن الجثث وُجدتْ مصابةً باطلاقات نارية في مناطق مختلفة من الجسم أغلبها في منطقة الرأس و"مليار دولار للتأمين على جسد هيفاء وهبي بعد تعرضها لحادث خطير قررت الفنانة اللبنانية التأمين على جسدها وفور معرفة الشركات المختصة ذلك إنهالت العروض على هيفاء لاختيار التأمين الأنسب حتى وصل المبلغ إلى مليار دولار..

وفي "الصباح الجديد" أقرأ:

"إستمرار تسلل المقاتلين الأجانب إلى العراق" و"إحتفاليّة لتكريم اليتيم العراقي برعاية وزير الشباب والرياضة تقام في حدائق الوزارة" و"مجلس النواب العراقي يدعو حزب العمال الكردستاني لمغادرة

الأراضي العراقيّة" و"الفنانة العراقية فريدة تزاوج بين المقام والفلامنكو في حفل إسباني" و"عراقيون يقبعون في السجون اللبنانية بأعداد غفيرة ولا ذنب لهم إلاّ أنهم دخلوا البلاد بطريقة غير شرعيّة"

وفي صحيفة "التآخي" الكرديّة:

"قال أردوغان رئيس وزراء تركيا أن نوري المالكي أخبره عن القيام بعملية مشتركة ضد حزب العمال الكردي وأنه سيبحث ذلك مع الرئيس بوش وتصريح للفنانة لوسي "إن راقصات مصر محترمات"

و"قصص قصيرة جداً" يكتبها أدباء شباب قصص تفاجئني موضوعاتها وأسلوبُها لأنها تستنسخ الواقع تماماً.. تنقل إلى اللغة كل المشاهدات اليوميّة وكأنهم بهذا يحاولون إعادة صورة الواقع المرير نفسه، يصورونه بكاميرا ديجيتل حروفيّة، نوع من متحف شمع للأحداث نقرأ فيه ما نرى من مآسي كل يوم.. هل إنتصرت عبقريةُ التراجيديا على عبقرية الحلم والابتكار؟ هل صار كتاب الواقع اليومي هو الخزّان المخياليّ الهائل الذي ينهلُ منه الجميع؟

قصص قصيرة هي حكايات كل فرد من شعب الضحايا والقرابين هذا:

قرابين

من خلال زجاج الشاحنة التي يقودها أبصر قرية صغيرة وادعة ومنسية.. تتقدم نحوه باسطة ذراعيها لاحتضانه، فهو بلا شك يحمل لأبنائها بعضاً مما يسهل أمور حياتهم الشاقة، ويطفئ ظمأ حرمانهم.. الملامح بدأت تتضح له

شيئاً فشيئاً.. وجوه كالحة متعبة لناس بسطاء.. نساء يتسربلن بالبياض، ورجال بلحايا وشوارب كثة.. أطفال شبه عراة يركضون حفاة باتجاه الشاحنة، لأن عقولهم الساذجة صوّرت لهم إن العربة القادمة من بعيد ناهبةً الطريق ومخلّفة وراءها زوبعة من التراب قد تحمل لهم ملابس أو لعب وهدايا أو ربما قليل من الحلوى.. النساء يخبئن ابتساماتهن الخجلى متأملات أن تكون السيارة القادمة مليئة بالنفط الأبيض أو على الأقل تحمل لهم ماء للشرب والطبخ... لا احد يعلم من أية أصقاع بعيدة جاء هذا السائق اللعين! ليلهب عواطف وتفكير هؤلاء الفقراء.. تفاجئ ببيوتاتهم الطينية، ولكنه تذكر بغتة الأوامر التي تلقاها: (هؤلاء الناس كفرة ويجب إبادتهم).. بدأ الخدر اللذيذ يسري في أوصاله، والمكافأت التي سيلقاها في الجنة - حوريات، أنهار من الخمر والعسل- كلها أثارت شهيته المريضة للموت.. أبطأ من سرعته، وكلما اقترب أكثر نبتت أمامه أفواج من الصبيان والصبايا..(إنهم كفرة).. تطن هذه الكلمات في أعماقه الخاوية إلا من الشر والانتقام.. (كفرة.. كفرة) يخرج هاتفه النقال.. يتصل برفيقه الذي يقود الشاحنة المتوجهة إلى القرية الأخرى.. نفذ مهمتك بعد خمس دقائق... يتصاعد الوهج والدخان إلى قلب السماء الداكن.. وتتناثر الأشلاء.

حشرجة

وسط الخراب الهائل.. بين أنقاض كوخهم المهدّم، وفي ظل الجدار الوحيد المتبقي.. كان يجلس بجوار ابنته الصغيرة وبيدها كتاب القراءة.. يقرأ لها بصوت مخنوق بالعبرات: (دار - دور - وطن!!.)

بقايا

يبحث في جيبه لا يجد علبة السجائر.. في جيبه الآخر لا يجد نظارته.. يفتش في ذاكرته لا يجد شيئاً يقوله.. ينظر إليهم كالمجنون وهم ينبشون الأنقاض - وراء البلدوزر- كدجاج جائع! يخرجون فردة حذاء، لعبة ممزقة، وبقايا بطانية زرقاء طالما غطى بها أولاده الصغار.

سقف

في مثل هذا الوقت من كل عام.. كان هو وزوجته يجلبون الطين ويخلطونه بالتبن يرممون به كوخهم المتداعي، ليقيهم من أمطار الشتاء.. وفي كل مرة كانوا يحلمون بمنزل صغير من الأسمنت يأويهم مع أولادهم الستة!.. هذا العام لم يرمموا.. ولم يحلموا.. لم يعد يملكون سقفاً حتى!.. لديهم فقط خيمة أعطتهم إياها لجنة الإغاثة، بعد أن دمّر الإرهابيون قريتهم وحوّلوها إلى ركام.

قصص.. قصيرة وتأريخ لا يكف عن النزف، هنا لا الحبرُ يجف ولا الدم، ولا الكلمات يمكن أن تتوقف عن النبض.

الليل يُطبقُ وكأن كلَّ شيء يبتعد، يغورُ عميقاً حتى النجم كأنه يَرسُبُ في هاوية، وبغداد تنام.. تنام.. هل حقاً تنام؟

يوم في بغداد

"شارع الرشيد".. لا، قطعاً لا.. أرفض أن أرى، أرفض أن أسمع شيئاً من هذا، لن أقتنع ولن أكرر هذه الكلمة بعد. لا لم أرَ شارع الرشيد ولم يكن شارعاً ولا رشيداً بشيء.. لا لم أمرَّ من هنا يوماً ولم أحترقْ تحت شمس بغداد وأنا أدوسُهُ من رأسه حتى أخمص قدميه. من قال هذا؟.. إن ما أرى الآن ليس إلاّ مشهداً له علاقة بمدينة أثرية مندثرة أحرقها الغزاة قبل أكثر من عشرين قرناً، لا يا صديقي، لسنا في شارع الرشيد إن سائق السيارة بالتأكيد قادنا إلى موقع نكتشفهُ للمرّة الأولى، ربما هي "سُبَرُ" المدينةُ التي أحرقها الغزاة قبل خمسة آلاف عام. أو أيّةُ مدينة كانت قائمة ثم لُعنَتْ ومُسختْ ونحن نهبطُ فوقَها الآن مثل كائنات حلمية أسطورية. نحن أمام مشهد لا يمت للحياة بصلة، فكيف يكون هو شريان بغداد المتدفق؟ إنني أرى هياكلاً تتهاوى، جدراناً تنزل مثل شلال حطام يتراكم فوق الأرض دون إنقطاع.. بينها هيكل أكاد أتذكر ملامحه.. ها هو المدخل الرخامي على يساره، هذه الهوّة الكبيرة مثل عين مفقوءة.. إنه كُشكُ التذاكر في هذه السينما التي تعلمنا فيها شكل الخوارق والمعجزات تتدفق صوراً على حائط. أجل، "سينما الخيام"..



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com

ISBN 978-9953-36-211-4
9 789953 362113